
روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
146
المأزق
www.liilas.com/vb3



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

146



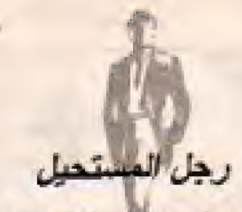
المأزق

- لماذا طالبت المخابرات الأمريكية بعزل (أدهم صبرى) من منصبه ؟!
- ما سر تلك الزعيمة الغامضة ، التى تحاول السيطرة على الموقف العالمى كله ؟!
- ترى هل ينجح (أدهم) فى تجاوز الأزمة .. وهل يجد مخرجا من هذا (المأزق) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة .. وقاتل بعقلك وخيالك مع الرجل .. (رجل المستحيل) .



العدد القادم (الغامضة)





رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه، هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حية، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- زيارة رسمية..

« انتبـاه ! »

انطلق الهتاف فى قوة وحزم، مقترنًا بصوت ارتطام الكعوب بعضها بالبعض، فى ضربة آلية واحدة، وارتفعت الأيادى بالتحية العسكرية، فى نفس اللحظـة التى ظهرت فيها سيارة مدير المخابرات العامة المصرية، وهى تعبر بوابـة القصـر الجمهـورى، فى لحظة مبـكرة مـن ذلـك الصباح، الذى غابت فيه الشمس، واحتجبت خلف غيوم كثيفة، غير مألوفة أو معتادة، فى هذا الوقت من العام..

وعبر ساحة القصر الجمهورى، اتخذت السيارة مسـارها، حتى توقفت أمام المبنى الكبير، حيث استقبلها مدير مكتب الرئيس شخصيًا، والذى بدا شديد الاهتمام، وهو يصافح مدير المخابرات، قائلاً:

- صباح الخير يا سيدى.. معذرة لإيقاظك فى هذه الساعة المبكرة، ولكن من الواضح أن الأمر عاجل ومهم للغايـة، وسيادة الرئيس ينتظرك فى مكتبه بالفعل.

ابتسم مدير المخابرات ابتسامة هادئة، وهو يقول:

- لا بأس.. لقد اعتدت الاستيقاظ مـع صلاة الفجر، تمامًا كما يفعل سيادة الرئيس.

كانت عقارب الساعة لم تكد تتجاوز السابعة ، عندما دلف مدير المخابرات إلى مكتب الرئيس ، قائلاً :

ـ صباح الخير يا سيادة الرئيس .

ردّ الرئيس تحيته ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، ويشير إليه بالجلوس ، ثم يجلس على المقعد المواجه له ، ويميل نحوه ، قائلاً في اهتمام :

ـ الأمريكيون أرسلوا (فلان) رسمياً إليكم .

بدت العبارة غامضة إلى حدٍّ ما ، في ذهن مدير المخابرات ، على الرغم من وضوحها اللغوي ، فقال في شيء من الحذر ، يقترن عادة بكل من يحتل هذا المنصب شديد الحساسية :

ـ إلينا ؟!

أجابه الرئيس في حزم :

ـ نعم .. إليكم .

ثم اعتدل جالساً ، وتابع في اهتمام شديد :

ـ هم أيضاً يعلمون أنني أستيقظ في ساعة مبكرة جداً ، قبل شروق الشمس ، لذا فقد اتصلوا بي في السادسة

والثلث صباحاً ، ليخبرني رئيسهم بنفسه ، أن أحد مسئولي المخابرات المركزية الأمريكية يرغب في عقد اجتماع خاص جداً ، وعاجل جداً ، مع مدير المخابرات العامة المصرية .

عقد مدير المخابرات بريده ، بنفس الحذر البالغ :

ـ خاص جداً ، وعاجل جداً !! ما الذي يعنيه هذا بالضبط ؟!

أطلق الرئيس تنهيدة قوية ، من أعمق أعماق صدره ، قبل أن يلوّح بكفيه ، قائلاً :

ـ بالضبط .. هذا هو السؤال ، الذي يحتاج منا إلى كل التركيز .. ما الذي يعنيه هذا بالضبط ؟! أي أمر هذا ، الذي يحتاج إلى اجتماع خاص جداً ، وعاجل جداً ، مع مدير المخابرات العامة شخصياً .

أطلق مدير المخابرات العنان لأفكاره ، وهو يجيب ، بنفس الحذر المقترن بشخصيته الفريدة :

ـ إنه ليس أمراً سياسياً حتماً ، وإلا لطلبوا مقابلة شخصية عاجلة مع سيادتكم ، أو مع أحد مستشاريكم ، أو حتى مع السيد وزير الخارجية .

تابع الرئيس في اهتمام :

- وهو ليس أمرًا عسكريًا أيضًا ، فأنا بحكم منصبي ، القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وهناك وزير الدفاع ، وقادة أفرع الجيش المختلفة .

أشار مدير المخابرات بسبابته ، قائلاً :

- تتبقى إذن الأمور الخاصة بنا .. أعمال المخابرات .

التقى حاجبا الرئيس ، وهو يقول :

- بالضبط .

ثم نهض من مقعده ، وعقد كفيه خلف ظهره ، فنهض مدير المخابرات بدوره ، ليتابع في حزم :

- ولكن أعمال المخابرات هي أمور بالغة السرية ، في أية دولة من دول العالم ، ولا يصح .. بل ولا يجوز رسميًا أن تتم مناقشتها ، أو أن تطالب دولة ما ، أية دولة أخرى ، بأن تفصح لها عما تعتبره من شئونها الخاصة .

وافقه الرئيس بإيماءة من رأسه ، وقال :

- والأمريكيون يعرفون هذا جيدًا ، وعلى الرغم من غطرستهم وتبجحهم في الآونة الأخيرة ، إلا أنهم قد تعاملوا معنا أكثر من مرة من قبل ، ويدركون جيدًا أننا نضع

كرامتنا ووطنيتنا فوق كل اعتبار ، وأننا لن نتنازل عن حقوقنا أو خصوصيتنا ، مهما كانت الضغوط .. ومهما كانت النتائج أيضًا .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، في تفكير عميق ، وهو يقول :

- ماذا إذن ؟!

شملهما الصمت بضع لحظات ، وكأنما لا يجد أحدهما ما يضيفه ، أو أن كليهما يبحث في ذهنه عن تفسير منطقي للموقف كله ، ثم لم يلبث مدير المخابرات أن تنحنح ، واستعاد طبيعته العسكرية ، وهو يشد قامته ، في وقفة حازمة صارمة ، ويقول :

- فليكن يا سيادة الرئيس .. إننا أمام لغز ما ، وهذا هو عملنا ، في جهاز المخابرات .. سنعقد اجتماعًا فوريًا ؛ لدراسة الموقف كله ، وسأطلب من أفضل خبرائنا أن ....

قاطعه الرئيس في حزم :

- الأمريكيون أيضًا توقعوا هذا .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، في تساؤل قلق ، وهو يتطلع إلى الرئيس ، الذي تابع :

- لقد لجئوا إلى أسلوب متحايل سخيف، وأرسلوا رجلهم إلى هنا فعلاً، قبل مخاطبتنا رسمياً، وهو الآن في سفارتهم، في حي (جاردن سيتي)، ويطلب الاجتماع بك في الثامنة، بحجة أن طائرة خاصة ستقله إلى (أوروبا)، في منتصف النهار، ولابد أن ينهي مهمته هنا، قبل سفره إلى هناك.

ازداد انعقاد حاجبي مدير المخابرات، وهو يعيد دراسة الموقف كله، وفقاً للمعطيات الجديدة، قبل أن يقول:

- إنها محاولة لإثبات قدرتهم على فرض إرادتهم وقتما يشاءون، وكيفما يشاءون، يا سيادة الرئيس؟!

هزّ الرئيس رأسه، في قوة وحزم، وهو يجيب:

- لو أنني شعرت بهذا لحظة واحدة، لرفضت الأمر كله فوراً، ودون ذرة واحدة من التردد.. ولكن من الواضح أن لديهم بالفعل ما يريدون التباحث معك شخصياً بشأنه.. ربما هو أمر غير سياسي، وغير عسكري كما قلنا، ولكنهم يريدون له شكلاً رسمياً، على نحو أو آخر، ولولا هذا لتم الاتصال بين مخابراتهم وبينكم مباشرة.

غمغم مدير المخابرات مؤيداً:

- هذا صحيح.

انعقد حاجبا الرئيس، وأطلّ حزم قوي، من كل خلية في وجهه، وكل لمحة من ملامحه، وهو يقول في صرامة:

- فليكن.. لديهم ما يريدون، ولدينا ما نرغب في معرفته، ولن يتحقق هذا أو ذاك إلا باجتماعك بهم.

وصمت بضع لحظات، قبل أن يضيف بكل الحزم:

- وليقض الله (سبحانه وتعالى) أمراً كان مفعولاً.

وكان هذا فصل الختام، في حوار الرئيس ومدير المخابرات..

وفصل البداية، لذلك اللغز الغامض..

اللغز الأمريكي..

* * *

في تمام الثامنة بالضبط، وقبل أن يمضي عقرب الثواني في طريقه لثانية واحدة إضافية، وصلت سيارة السفارة الأمريكية، إلى مبنى المخابرات العامة المصرية، في حي (كوبري القبة)، في قلب (القاهرة)..

ووفقاً لأوامر المدير، تم اتباع كافة إجراءات الأمن المعتادة، دون استثناء واحد، ودون أن يعترض مندوب المخابرات

الأمريكية بحرف واحد ، حتى اصطحبه أحد رجال الأمن ، إلى حجرة المدير ، الذي استقبله في احترام معتاد ، في مثل هذه الأحوال ، ولكن دون أية بادرة للحرارة أو المودة ، ثم دعاه إلى الجلوس ، قبل أن يسأله في هدوء ، لا يخلو من الحزم :

ـ لماذا طلبتم الاجتماع بي شخصياً ؟!

التقط رجل المخابرات الأمريكي نفساً عميقاً ، ملأ به صدره عن آخره ، وكأنه يهم بخوض معركة شرسة ، قبل أن يقول في حزم :

ـ الإدارة لدينا منزعجة جداً ، بشأن بعض تجاوزاتكم ، التي فاقت كل الحدود .

شبك المدير أصابع كفيه أمامه ، وهو يقول في هدوء ، يخفي كل ما يعتمل في أعماقه :

ـ تجاوزات ؟! وأية أمور تلك التي يمكن تسميتها بهذا المصطلح ، في عالم المخابرات ؟!

أجابه المندوب الأمريكي في سرعة :

ـ أمور عديدة .

هزّ المدير كتفيه في هدوء عجيب ، قائلاً :

ـ فليكن .. لو أنه لديكم أية احتجاجات رسمية ، فيمكنكم أن ..

قاطعه الأمريكي ، في شيء من العصبية :

ـ لو أن لدينا احتجاجات رسمية ، لما غادرت الولايات المتحدة الأمريكية قط ، ولتولت وزارة الخارجية الأمر كله .

صمت المدير لحظة ، قبل أن يسأله ، بنفس الهدوء الظاهري المستفز :

ـ ماذا هناك إذن ؟!

أجاب الأمريكي ، قبل حتى أن يكتمل السؤال :

ـ تجاوزاتكم .

وهنا ضرب المدير سطح المكتب براحته ، قائلاً في صرامة :

ـ أية تجاوزات ؟!

احتقن وجه الأمريكي ، وازدرد لعابه في توتر ، وكأنما لم يكن يتوقع هذا الهجوم ، قبل أن يقول :

ـ الخطوط الحمراء .. لقد تجاوزتم كل الخطوط الحمراء .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول بكل الصرامة :

- لا توجد خطوط حمراء في عالمنا يا رجل .. لسنا مثلكم ، نفعل أي شيء ممكن ، أو غير ممكن ، لبلوغ الأهداف والغايات ، بغض النظر عن الطرق والوسائل والأساليب .. إننا ويحكم طبيعتنا ومبادئنا ، والتزامًا منا بعقيدتنا ، نلتزم حتمًا بحدود خاصة ، ونكيف وسائلنا لتتوافق معها ، بحيث نحقق النجاح ، دون أن نخل بالعقيدة ، أو أخلاقيات المهنة .

هز الأمريكي رأسه في قوة ، قائلاً في حدة :

- لا توجد أخلاقيات لعالم المخابرات ، سوى أن تربح معركتك ، وتنتصر في مهمتك ، مهما كانت الوسائل .. وعقيدتنا أن النجاح في النهاية ، يغفر كل ما سبقه من تجاوزات .

أشار المدير بسبابته ، قائلاً في صرامة :

- من وجهة نظركم فحسب .

لوح الأمريكي بذراعه كلها ، هاتفًا :

- فليكن .. هذا شأنكم وحدكم .

أجاب المدير ، بمنتهى الصرامة :

- بالتأكيد .

حاول الأمريكي أن يلتقط أنفاسه ، للسيطرة على انفعاله الجارف ، الذي دفعه إلى تجاوز الحدود ، وبذل جهدًا خرافيًا ؛ للاسترخاء في مقعده ، ولكن مدير المخابرات المصرية قال في حزم ، دون أن يمنحه الفرصة لهذا :

- لم نحصل على جواب بعد .

تنحنح مندوب المخابرات الأمريكية ، في عصبية واضحة ، قبل أن يقول في شيء من الحدة :

- إنني هنا ، بشأن أحد رجالكم .

تراجع المدير في مقعده ببطء ، وبدا له أنه قد أدرك الهدف أخيرًا ، فتطلع إلى عيني الأمريكي مباشرة ، وهو يردد في حذر :

- أحد رجالنا !

مال الأمريكي إلى الأمام بحركة حادة ، قائلاً :

- نعم ..

تملكه الانفعال ، على الرغم منه ، فازدرد لعابه هذه المرة ، قبل أن يكمل في صوت مبحوح :

- (أدهم صبري) .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يعتدل بحركة حادة ، هاتفًا :

- أد ....

بتر كلمته دفعة واحدة ، قبل أن ينطق الرمز الكودى لـ (أدهم) ، والذى اعتاد أن يخاطبه به دومًا ، من دون اسمه ، وبدا الغضب واضحًا جليًا ، فى ملامحه وصوته ، وهو يقول فى صرامة :

- ماذا عنه ؟!

قال الأمريكى فى توتر ملحوظ :

- رجلكم هذا بالذات ، يتجاوز دومًا كل القواعد والحدود ، عندما يقوم بمهمة ما ؛ حتى إنه لايبالى بكوننا قادة النظام العالمى الجديد ، وزعماء الـ ...

قاطعه المدير فى صرامة ؛ ليمنعه من مواصلة كلماته المتباهية السخيفة :

- ومن يبالى ؟!

اتسعت عينا الأمريكى ، وهو يحدّق فيه بدهشة بالغة ، وكأنما لايصدّق ما سمعه ، فواصل المدير ، بكل صرامة الدنيا :

- دعنى أذكركم بقاعدة مهمة ، فى عالم المخابرات ، فالعمل هو العمل ، وكل جهاز يؤدى دوره ، وفقًا لمقتضيات

الموقف ، ومتغيرات الأمور والأحداث فى وقته ، وفى المنطقة المحيطة به ، وكل رجل هنا يؤدى واجبه ، بكل إخلاص وأمانة وصدق وتفان ، وكلهم مستعدون للموت ، دون ذرة واحدة من التردد ، فى سبيل عقيدتهم ووطنهم ، فمن أنتم حتى تأتوا بكل غطرسة الدنيا ، لتطالبونا بألا نؤدى عملنا وواجبنا ؟! من تكونون ، حتى تحاولوا دفعنا إلى مسار واحد ، تختارونه لنا بأنفسكم ؟!

ثم نهض بحركة حادة ، انتفض لها جسد الأمريكى على نحو غريزى ، وهو يواصل ، بنفس الصرامة :

- لو أن هذا هو السبب الوحيد لاجتماعكم بنا ، فيمكنك أن تعتبر أن هذا ردنا النهائى .

هتف الأمريكى فى غضب :

- ولكننا لم نطرح مطلبنا بعد .

صاح به مدير المخابرات :

- المبدأ نفسه مرفوض .. لن نسمح لكم بالتدخل فى شئوننا الخاصة أبدًا .

هبّ الأمريكى واقفًا ، وهو يقول فى حدة :

- مهما كانت النتائج ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته ، وأجاب بكل الحزم :

ـ مهما كانت النتائج .

انتفض جسد الأمريكي في قوة ، وانعقد وجهه بشدة ، وبدا لحظة وكأنه سينفجر كبالون منتفخ ، من فرط انفعاله ، في حين عقد مدير المخابرات ساعديه أمام صدره في صرامة ، و .....

ـ « أنا مُصِرّ ... »

نطقها الأمريكي فجأة ، بصوت حاد رفيع ، بدا وكأنه قد تجاوز حلقه بدفعة واحدة مباغتة ، وهو يضمّ حقيبته في شدة إلى صدره ، على نحو يوحي بأنها تحوي شيئًا بالغ الأهمية ، فسأله المدير في صرامة :

ـ علام تصرّ ؟

أجابه الأمريكي ، في سرعة وعصبية :

ـ على استكمال المفاوضات .

أشار المدير براحته ، قائلاً في صرامة شديدة :

ـ لا تفاوض في هذا الشأن .

جلس الأمريكي بحركة عصبية ، وهو يفتح حقيبته ، قائلاً في عناد :

ـ لابد أن تسمعوا عرضنا أولاً .

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، وهو يدير الأمر في رأسه ، فتابع مندوب المخابرات الأمريكية في شيء من الحدة :

ـ وأن نتشاور فيه مع الرئيس شخصيًا ، قبل اتخاذ أي قرار .

رمقه مدير المخابرات بنظرة صارمة ، قبل أن يعود للجلوس على مقعده ، ويقول بنفس الصرامة :

ـ وما عرضكم هذا ؟!

التقط الرجل من حقيبته عدة أوراق ، وضعها أمام مدير المخابرات ، وهو يقول في سرعة :

ـ الكونجرس وافق على منحكم ضعف المساعدات المالية والعسكرية الحالية ، وزيادة نسبة التعاون الفني بيننا ثلاث مرات ، كما وافق على فتح الأسواق الأمريكية أمام منتجاتكم ، و ...

قاطعه المدير في حزم :

- والثمن ؟!

تراجع المندوب الأمريكي في مقعده ، قائلاً :

- أنتم تعرفون الثمن .

مال المدير نحوه ، قائلاً في صرامة :

- حياة (أدهم صبري) .. أليس كذلك ؟!

استعاد الأمريكي لونه الطبيعي ، والكثير من هدوئه وثقته بنفسه ، وهو يقول :

- ليس بالضرورة .. حياته أو موته لا يعنياننا كثيرًا في الواقع .

ثم التقى حاجباه ، وهو يميل إلى الأمام ، مستطردًا :

- المهم ألا يبقى .

تراجع مدير المخابرات في مقعده ، دون أن يرفع عينيه عن وجه الرجل ، الذي تابع ، وقد استعاد ثقته كاملة :

- هناك وسائل عديدة ، فمن الممكن إحالته إلى التقاعد ، أو نقله إلى وظيفة إدارية ، في جهاز أمني آخر ، أو حتى منحه منصبًا قياديًا ، في وزارة الصناعة ، أو هيئة البترول ، أو ......

قاطعه المدير بكل الحزم والحسم :

- (أدهم) سيبقى .

تطلّع إليه الأمريكي في صمت ، فتابع بنفس اللهجة :

- وقرار اعتزاله يعود إليه ، أو إلى تجاوزه السن القانونية للعمل .. وحتى في الحالة الأخيرة ، أظن أن أي مدير قادم للمخابرات ، لن يتردد لحظة واحدة ، في التعاقد معه شخصيًا ، للاستفادة من كل خبراته السابقة .

ثم أشار بسبابته ، مضيفًا في صرامة :

- ما لم يطلبه الرئيس ، كمستشار أمني خاص بالطبع .

صمت الأمريكي طويلاً هذه المرة ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قبل أن يحول لهجته فجأة ، في شيء من الحزم :

ـ ألن نتحاور مع الرئيس أولاً ؟

أجابه مدير المخابرات في صرامة :

ـ لن يختلف رأي سيادة الرئيس كثيراً ، عما سمعته مني الآن .

قال الرجل في تحد :

ـ أأنت واثق ؟!

عقد المدير ساعديه أمام صدره ، قائلاً في حسم :

ـ تمام الثقة .

ارتسمت ابتسامة غامضة ، على شفتي الأمريكي ، وهو يلتقط مجموعة أوراق جديدة من حقيبته ، ويضعها أمام مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ الأفضل ألا تسرف في الثقة .. أو التفاؤل .

ثم تراجع في مقعده ، مضيفاً :

ـ قبل أن تطالع الجزء الثاني من عرضنا هذا .

التقط مدير المخابرات الأوراق ، في حذر قلق ، وانحنى يطالعها في اهتمام ، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة ، ويتفجر الغضب من كل ذرة في كيانه بلا استثناء ..

فالجزء الثاني من العرض الأمريكي ، كان يتجاوز الحدود بالفعل ..

كل الحدود .

* * *

٢ ـ العرض الوقح ..

« كل شيء ينهار .. »

انطلقت الصيحة ، بكل توتر الدنيا ، عبر شبكة الاتصال المحدودة ، داخل مقر مستر (X) ، زعيم أكبر منظمة للجاسوسية الخاصة في العالم ، فانعقد حاجبا هذا الأخير في شدة ، وهو يقول في عصبية ، فلما التقطها صوته :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن تسوء الأمور بهذه السرعة ! هذا المقر يعتبر حصناً حصيناً ، بالقياس إلى كل ما أحطناه به ، من وسائل الحماية والدفاع .

هتف مساعده الأول ، عبر شبكة الاتصالات ، وكل حرف من حروف كلماته يرتجف على شفتيه ، من فرط التوتر والانفعال :

ـ إنهم يهاجمون نقاط تحصيناتنا ، ومقر دفاعاتنا مباشرة ، وكأنهم يحملون خريطتنا الدفاعية السرية .. لقد حصلوا عليها يا مستر (X) .. حصلوا عليها حتماً ، بوسيلة ما .

انعقد حاجبا مستر (X) بمنتهى الشدة ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! مستحيل !

هتف المساعد ، وصورته تهتز ، على شاشة جهاز الاتصال المحدود :

ـ لم يعد مستحيلاً أيها الزعيم .. لقد صار حقيقة .. حقيقة مرعبة مفزعة .. إننا نعيش كابوساً بشعاً ، لم نتصور مجرد حدوثه .. كل شيء من حولنا ينهار ، بسرعة .. كل شيء .. كل شيء ..

صرخ بكلماته الأخيرة ، وقد تضاعف انفعاله بشدة ، حتى خيل لمستر (X) أن الرجل قد أصيب بالجنون ، من فرط الرعب والانهيار ، فازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول في صرامة عصبية :

ـ تمهل .. لدينا خطة أخيرة ، و ....

قبل أن يتم عبارته ، نقلت إليه أجهزة الاتصال دوي رصاصة ، امتزجت بشهقة مكتومة من مساعده ، الذي بدا على الشاشة متسع العينين ، متفجرًا بالألم والرعب ، قبل أن تسيل الدماء فجأة ، من ثقب في جبهته ، ثم يسقط كالحجر ..

وانتفض جسد مستر (X) في عنف ، وهو يهب من مقعده بحركة حادة ، ويحدق في شاشة جهاز الاتصال المحدود ،

التي حملت صورة امرأة فاتنة ، تألقت نحوها في هدوء ، وهي تحمل مبسمًا ، ما زال الدخان يتصاعد منه ، وهي تقول في سخرية :

- مرحبًا يا زعيم العملاء الغامض .. أراهن على أنك لم تتوقع أبدًا أن أتحدث إليك يومًا ، من داخل مقرك الظريف هذا .. أليس كذلك ؟!

بدا شديد التوتر والعصبية ، وهو يحدق في وجهها ، الذي ملأ شاشة الاتصال ، قائلاً :

- الواقع أنني كنت أنتظر شخصًا آخر .

هزت كتفيها ، قائلة في لامبالاة :

- أعلم هذا .

عاد حاجباه ينعقدان في عصبية ، وهو يقول :

- من الواضح أنك تعلمين الكثير .

أشارت بسبابتها ، قائلة :

- بالضبط .

ثم التقطت من علبة سجائرها الذهبية سيجارة ، ذات لون أحمر زاه ، أمسكتها بين شفتيها الجميلتين ، وأشعلتها بولاعة مرصعة بالماس ، ونفثت دخانها في استمتاع واضح ، قبل أن تقول :

- أنا أعلم مثلاً ، أنك تختبئ الآن ، داخل مقرك الخاص ، أسفل القاعة التي أقف فيها الآن ، وأن تصميمات المبنى تجعل الوصول إليك ضربًا من المستحيل .

قال في صرامة :

- هذا صحيح .

أردفت في سرعة :

- من وجهة نظرك فقط .

تطلعت إليه ، ثم أطلقت ضحكة عالية عابثة ، قبل أن تميل نحو الشاشة أكثر ، ونفثت دخان سيجارتها نحوها ، متابعة :

- في طريقي إلى هنا ، مررت بمعمل البروفيسور (برانت) ،

التي حملت صورة امرأة فاتنة ، تألقت نحوها في هدوء ، وهي تحمل مسدساً ، ما زال الدخان يتصاعد منه ، وهي تقول في سخرية :

- مرحباً يا زعيم العملاق الغامض .. أراهن على أنك لم تتوقع أبداً أن أتحدث إليه يوماً ، من داخل مقرك الظريف هذا .. أليس كذلك ؟!

بدا شديد التوتر والعصبية ، وهو يحدّق في وجهها ، الذي ملأ شاشة الاتصال ، قائلاً :

- الواقع أنني كنت أنتظر شخصاً آخر .

هزّت كتفيها ، قائلة في لامبالاة :

- أعلم هذا .

عاد حاجباه ينعقدان في عصبية ، وهو يقول :

- من الواضح أنك تعلمين الكثير .

أشارت بسبابتها ، قائلة :

- بالضبط .

ثم التقطت من علبة سجائرها الذهبية سيجارة ، ذات لون أحمر وردي ، أمسكتها بين شفتيها الجميلتين ، وأشعلتها بولاعة مرصّعة بالماس ، ونفثت دخانها في استمتاع واضح ، قبل أن تقول :

- أنا أعلم مثلاً ، أنك تختبئ الآن ، داخل مقرك الخاص ، أسفل القاعة التي أقف فيها الآن ، وأن تصميمات المبنى تجعل الوصول إليك ضرباً من المستحيل .

قال في صرامة :

- هذا صحيح .

أردفت في سرعة :

- من وجهة نظرك فقط .

نطقتها ، ثم أطلقت ضحكة عالية عابثة ، قبل أن تميل نحو الشاشة أكثر ، وتنفث دخان سيجارتها نحوها ، متابعة :

- في طريقي إلى هنا ، مررت بمعمل البروفيسور (إدوارد) ،

وأجرت معه حوارًا هادئًا لطيفًا، أثبت صحة وجهة نظري، تجاه هؤلاء العلماء؛ فمع أول إشارة للاعتداء من صاحبته، انهار تمامًا، ومنحنا كل التصميمات، الخاصة بنظام الدفاع والحماية الإلكترونية للمكان كله، وشرح لنا كيفية تجاوز كل الحواجز.

احتقن وجه مستر (X)، من فرط الغضب، مع ضحكتها العابثة الثانية، التي حملت قدرًا رهيبًا من السخرية، قبل أن تتابع:

- وهذا يثبت أيضًا أنك مازلت تحمل لمحة من الحماقة في أعماقك يا عزيزي الزعيم .. السابق .. فلو كنتُ في موضعك لما تركت الرجل الذي يعرف أسرار دفاعاتي على قيد الحياة، وبدون حراسة أو حماية أيضًا .. لا تحمل في قلبك ضغينة تجاهي يا عزيزي، ولكن هذا التصرف كان شديد الحماقة بالفعل.

اقترنت عبارتها الأخيرة بأزيز جهاز إنذار خاص، داخل

معقله الحصين، يشير إلى أن بعضهم قد تجاوز الدفاعات الرئيسية للمعقل، وأن سقوطه أصبح مسألة وقت فحسب، فازداد احتقان وجه مستر (X)، وقال في غضب هادر:

- ستدفعين الثمن غاليًا أيتها الحقيرة.

أطلقت ضحكة عالية، إثر عبارته الغاضبة، وقالت بمنتهى السخرية:

- أدفع الثمن .. ومن تتوقَّع أن أدفعه بالضبط، يا زعيم المتخلفين ؟!

جذب مستر (X) شريحة خاصة، في قاعدة جهاز الاتصال، وراحت أصابعه العصبية تضغط مجموعة من الأزرار الدقيقة، المثبتة على سطحها، في تتابع مدروس، وهو يقول:

- لا تتمادي إلى هذا الحد أيتها الحقيرة .. ربما تسير الأمور، على عكس ما تتصوَّرين، على الرغم من أن الأمور كلها قد توحي بخلاف هذا.

ارتفع حاجباها ، في دهشة ساخرة ، وهي تهتف :

ـ حقاً !؟

ثم عادت تميل نحو الشاشة ، متابعة :

ـ ولكن معذرة يا عزيزي ، فلو أنك تقصد نظام التدمير الشامل ، الذي لا يحركه رجالك وجنودك ، والذي لا يمكن التحكم فيه ، إلا بوساطة تلك الشريحة الخاصة ، في قاعدة جهاز الاتصال المحدود ، داخل المخبأ السري ، فيؤسفني أن أبلغك ، بقولي : إننا قد أتلفنا وصلاته الرئيسية ، فور نجاحنا في التحكم بمقرك هذا .

وأطلقت ضحكة عابثة أخرى ، مضيفة :

ـ باختصار يا عزيزي مستر (X) ، لقد أصبحت أشبه بفأر حقير ، داخل مصيدة محكمة ، ليس أمامه سوى انتظار لحظة وصول القط ، ليلهو به قليلاً ، ثم يلتهمه في النهاية بلا رحمة .

حمل صوته كل غضب الدنيا ، وهو يهتف :

ـ هذا ما تتصورينه أيتها الحقيرة .

هزت كتفيها في لا مبالاة ، وألقت سيجارتها بعيداً ، وهي تقول في استهتار واثق :

ـ إنها مسألة وقت فحسب .

كان جهاز الإنذار الثاني ، داخل مخبأ مستر (X) ، قد انطلق أيضاً ، معلناً انهيار الدفاعات الثانوية ، إلا أن الرجل ضغط زر إنهاء الاتصال ، وهو يقول في حدة :

ـ صحيح أنك لست من كنت أتوقعها ، وأنك أكثر مهارة وبراعة ، من كل ما تصورته ، ولكن هذا لا يعني أنني قد خسرت المعركة كلها .

ثم استدار يضغط زراً خفياً ، في جدار المخبأ الخلفي ، وهو يضيف في مقت شديد :

ـ إنها مجرد جولة .

انزاح الجدار الخلفي في خفة ، ودون أدنى صوت ، ليكشف خلفه زورقاً آلياً صغيراً ، يستقر فوق سطح مياه جدول صناعي ، يتصل بالمحيط مباشرة ، فوثب إليه ، مكملاً :

- والبروفيسور (براون) لم يكن وحده مبتكر كل شيء .

لم تمض دقيقة واحدة على قوله هذا ، حتى كان مقاتلو تلك الفاتنة الغامضة يقتحمون المكان ، بمنتهى القوة والعنف ، و . . .

« الفتى !! »

هتفت هي بالكلمة في غضب مكتوم ، عندما أبلغها الرجال بالأمر ، وأشعلت سيجارة أخرى ، في توتر ملحوظ ، قبل أن تقول في صرامة :

- خطأ .. أكبر خطأ .. كان من المحتم أن يلقى مصرعه هنا .. لقد اتخذنا كل الاحتياطات اللازمة لهذا !!

أجابها قائد فرقها في توتر :

- من الواضح أن معلوماتنا لم تكن كاملة أيتها الزعيمة .. كان هناك نفق فرار مائي سري ، يتصل بالمحيط مباشرة ، ولقد رصد رجالنا زورقًا مصفحًا ، ينطلق بسرعة خرافية ، مبتعدًا عن هنا ، وعندما أطلقوا النار نحوه ، ارتدت رصاصاتهم ، ثم غاص في أعماق المحيط ، واختفى

تمامًا عن الأنظار .. حتى طائرات الهليكوبتر عجزت عن العثور عليه .

انعقد حاجباها في شدة ، وهي تنفث دخان سيجارتها في توتر ، قبل أن تقول في عصبية :

- زورق مصفح ، يمكنه أن يتحول إلى غواصة صغيرة !! أسلوب بارع بحق يا مستر (X) .. لقد ربحنا الجولة ، ولكننا لم نربح المعركة كاملة ..

نفثت دخان سيجارتها بضع لحظات ، قبل أن تتابع :

- فليكن .. لن يفسد هذا خططنا المستقبلية .

وأدارت عينيها إلى قائد قواتها ، مستطردة :

- سننتقل إلى الفصل التالي من الخطة مباشرة .

سألها في اهتمام :

- وماذا عن هذا المقر ؟؟ هل نستولي على كل الأسلحة والأجهزة التكنولوجية ، و ....

قاطعته في صرامة :

- انسف المكان كله فحسب .. فوراً .

ارتفع حاجبا الرجل في دهشة ، وهو يقول :

- أنسفه ؟! هذه الأشياء تساوي ثروة طائلة .. و ....

قاطعته بصيحة هادرة :

- نفذ الأوامر .

ثم اتجهت نحو الهليكوبتر الخاصة بها ، وهي تضيف في صرامة شرسة ، ولهجة قاسية حاسمة :

- أنا وحدي أعلم ، لماذا أفعل كل هذا ؟!

قالتها ، ووثبت داخل الهليكوبتر ، مستطردة :

- لا تترك ذرة واحدة سليمة .. هل تفهم ؟ ذرة واحدة !

وارتفعت بها الهليكوبتر ، وانطلقت مبتعدة ، تاركة القائد خلفها ، في حيرة كبيرة ، لم يلبث أن حسمها ، هاتفاً برجاله في صرامة :

- استعدوا لنسف كل شيء .. فوراً .

كانت الهليكوبتر قد ابتعدت بها كثيراً ، عن المطار السري لمستر (X) ، عندما سطع ضوء الانفجار الهائل في السماء ، فتألقت عيناها ، وأشعلت سيجارة جديدة ، مغمغمة :

- عظيم .

نسف المطار السري لمستر [X] ، كان بالنسبة إليها بداية العملية الكبرى القادمة ..

العملية التي ستغير وجه العالم كله ..

إلى الأبد ..

* * *

انعقد حاجبا (أدهم صبري) ، في صرامة غاضبة ، وهو يطالع تلك الأوراق ، التي قدمها له مدير المخابرات ، قبل أن يعيدها إليه ، قائلاً :

- أتوقع أنه عرض رائع للغاية يا سيدي ، ويضع وطننا كله في مأزق سخيف .

أشار المدير بسبابته ، قائلاً في حزم :

- سيادة الرئيس قرر رفض العرض كله يا (ن - ١) .. بل وتقديم احتجاج رسمي عليه ، في كل المحافل الدولية ، وبخاصة في الأمم المتحدة(*) ، ومجلس الأمن(**) .. الأمريكيون لن يفرضوا إرادتهم علينا أبدًا ، مهما كان الثمن .. لقد أبلغتك بالأمر ، فقط لأنك أحد أطرافه ، ومن حقك أن تدرك ما يدور من حولك .

بدا (أدهم) شديد الاهتمام ، وهو يقول :

- إنني أحترم تمامًا موقف سيادة الرئيس يا سيدي ، وأدرك جيدًا أنه من المستحيل أن يقبل مثل هذا العرض الوقح ، حتى ولو كان الأمريكيون هم أكبر قوة ضاربة في العالم كله ، وزعماء النظام العالمي الجديد ..

(*) الأمم المتحدة : منظمة دولية ، أنشأتها الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية ، لتحل محل عصبة الأمم ، في حفظ السلام ، وحل المنازعات الدولية ، وتحقيق التعاون الدولي ، الاقتصادي والاجتماعي ، وقد وقعت خمسون دولة على ميثاق الأمم المتحدة ، في ٢٦ يونيو ١٩٤٥ م ، والفروع الرئيسية للأمم المتحدة هي : الجمعية العامة ، مجلس الأمن ، المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، مجلس الوصاية ، محكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة .

(**) مجلس الأمن : أحد فروع الأمم المتحدة ، والمسئول عن حل المنازعات الدولية ، وقد اجتمع لأول مرة ، في يناير ١٩٤٦ م .

أدرك أنه لن يقبل عرضهم ؛ لأن مصر الحرة تأبى عليه أن يقبله ، وترفض بكل شمم وإباء أن تحاول أية دولة في الوجود ، أن تفرض إرادتها على شعبنا وتاريخنا .. ولكن الأمريكيين يصرون الآن بصفة غير طبيعية ، من زهو القوة ، والتعطش لرائحة الدم ، والتجاهل التام لكل القوانين والقواعد ، والأعراف الدولية أو الإنسانية ، وما فعلوه هم والبريطانيون في (العراق) ، متجاوزين كل شيء ، وكل قانون ، ومعلنين تأييدهم لقانون القوة وشريعة الغاب ، هو أكبر دليل على وحشية هذا الزمن .

قال المدير في حزم :

- نحن نعلم كل هذا ، ومازلنا نرفض الاستسلام لإرادة الأمريكيين يا (ن - ١) .. سندافع عن حريتنا واستقلالنا ، مهما كان الثمن ، ومهما كانت التضحيات .

صمت (أدهم) لحظة ، التقط خلالها نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول في حزم واقتناع :

- ليس من العدل يا سيدي ، أن يضحي شعب كامل ، من أجل فرد واحد ، مهما كانت أهميته .

هزّ المدير رأسه، قائلاً:

- إنها ليست مسألة فرد واحد يا (ن - ١) .. الأمر يتجاوز هذا بكثير، ولو أن المشكلة تكمن في علاقتك بجهاز المخابرات فحسب، لكان من الممكن أن نتخذ قرارنا، ولكن الواقع أنها لعبة فرض إرادة، ولو استسلمنا للإنذار الأمريكي هذه المرة، سيتمادون أكثر وأكثر، في المرة القادمة.

شدّ (أدهم) قامته، قائلاً:

- إنهم سيتمادون في كل الأحوال يا سيّدي .. تجربتهم في مشكلة (العراق) تثبت هذا.

تراجع المدير في مقعده، قائلاً في حزم:

- أنت رجل مخابرات قوي يا (ن - ١) خبير في مهنتك، مدهش في قدراتك، وسيّد بلا منازع في عالمنا هذا، ولكن لو أن براعتك في السياسة تقارب براعتك في عمل المخابرات، لأدركت أن الفارق شاسع، بين موقفنا وموقف (العراق) السابق، وأن ..

- « أرجو قبول استقالتي يا سيّدي .. »

قاطعه (أدهم) بقوله هذا فجأة، فاتسعت عينا المدير، وهو يهتف مستنكرًا:

- ماذا ؟!

شدّ (أدهم) قامته أكثر، وهو يقول، بلهجة رجل حسم أمره، واتخذ قرارًا لا رجعة فيه:

- يبدو لي حلاً مثاليًا، من جميع الوجوه يا سيّدي.

حدّق فيه المدير لحظة أخرى، قبل أن يضرب سطح المكتب براحته، هاتفًا في صرامة:

- خطأ يا (ن - ١) .. خطأ .. لو استقلت من عملك الآن، سيتصوّر الأمريكيون أننا قد أجبرناك على تقديم استقالتك، تلبيةً لمطالبهم، وأننا قد خضعنا لعرضهم الوقح هذا.

قال (أدهم) في توتر:

- واستمراري في العمل سيضع (مصر) كلها في مأزق سخيف يا سيّدي، وسيضطرها إلى الدخول في صراع، يتعارض مع كل مشروعاتها التنموية، وخططها المستقبلية، وكمصري مخلص لوطنه، آبى بنفسي عن التسبّب في حدوث هذا.

هزّ المدير رأسه نفياً في قوة، وهو يقول:

- ليس من حقك أن تتخذ القرارات، في موقف كهذا، يخص الأمة كلها، حتى ولو كان الأمر يتعلّق بك شخصياً.

التقط (أدهم) نفساً عميقاً، قبل أن يقول:

- معذرة يا سيدي.. أنا أشعر بالإرهاق الشديد، منذ فترة من الوقت، وأحتاج بالفعل إلى إجازة طويلة نسبياً، أستعيد خلالها نشاطي، وأسترجع حيويتي، والآن، وفي مثل هذه الظروف، يبدو لي أنه لا فارق بين إجازة طويلة، واستقالة فورية.. على الأقل، الأخيرة ستحسم الموقف كله الآن.

انعقد حاجبا المدير، وهو يتراجع في مقعده، ويقول في بطء:

- إجازة طويلة ؟! فكرة لا بأس بها على الإطلاق.

ثم عاد يعتدل بحركة حادة، وأشار نحو (أدهم) بسبابته، مستطرداً في صرامة:

- إنه حل عبقري يا (ن - ١).

أطلّ التساؤل من عيني (أدهم)، فتابع المدير بنفس الصرامة:

- تقدّم إلى شئون الأفراد بطلب إجازة طويلة.. إجازة لمدة شهر مثلاً.. هذا حقك القانوني، لأنك لم تحصل على أية إجازات اعتيادية، منذ عدة سنوات.. وعلى نحو روتيني تماماً، ستتم الموافقة على طلب إجازتك، بتاريخ سابق لليوم، أي أنك، ومن الناحية الرسمية، ستكون في إجازة رسمية، منذ صباح أمس، أي قبل أن يقدّم الأمريكيون عرضهم الوقح.

تساءل (أدهم):

- وهل سيصنع هذا فارقاً ؟!

أجابه المدير، في سرعة وحزم:

- بالتأكيد.

ثم عاد يتراجع في مقعده، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه، مضيفاً:

- سيمنحنا هذا شهراً كاملاً على الأقل ، لدراسة الموقف ، وبحثه ، وتقييمه ، واتخاذ ما يلزم بشأنه .

تردد (أدهم) لحظة ، قبل أن يقول :

- أخشى أنه مجرد تأجيل للمواجهة فحسب .

أشار المدير بسبابته ، قائلاً :

- عبارة لا ينبغي أن ينطقها رجل مخابرات محترف يا (ن - ١) فالوقت هو أفضل ما يمكن أن يحظى به أي جهاز مخابرات ، لتجاوز العقبات ، وتحقيق المستحيلات .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة ، وهو يلوح بيده ، قائلاً في حزم :

- ثم من يدري ، كيف يمكن أن تتطور الأمور ، خلال شهر كامل ..

ولم يدر المدير لحظتها ، كم كانت عبارته صادقة .

فمن يدري ، كيف تتطور الأمور ، خلال شهر كامل ؟!

بل خلال أسبوع واحد ؟!

من يدري ؟!

هذا هو السؤال .

* * *

٢- إنـــذار ..

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكي في شدة، وهو يطالع الورقة التي وضعتها مستشارته الأمنية الخاصة أمامه، وقال في حدة:

- ما الذي يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابته مستشارته الأمنية السمراء، بلهجة باردة كملامحها:

- كما ترى يا سيادة الرئيس .. إنه إنذار.

استشاط الرئيس الأمريكي غضباً، وهو يهتف:

- إنذار ؟! ومن ذا الذي يجرؤ على توجيه إنذار لنا .. نحن أقوى دولة في العالم، وزعماء النظام العالمي الجديد، و ....

قاطعته مستشارته الأمنية، في لهجة صارمة قاسية، لا تتناسب مع وضعها السياسي:

- المنطقة التاسعة والأربعون، تمت إزالتها تماماً من الوجود.

حدّق فيها الرئيس الأمريكي، في دهشة تمتزج بلمحة ذعر، وهو يقول:

- المنطقة التاسعة والأربعون ؟! عن أية منطقة تتحدثين بالضبط ؟!

أجابته، مجيبة في برود غاضب:

- عن القاعدة العسكرية السرية، في صحراء (نيفادا)، والتي تحمل الرمز الكودي (المنطقة التاسعة والأربعين)، والتي لا يعلم بوجودها سوى عدد محدود، من كبار القادة والخبراء .. تلك القاعدة، التي تحوي عدداً من أسلحتنا السرية التجريبية، أصابها سلاح مجهول، على نحو تسبب في سحقها سحقاً، وإزالتها من الوجود تماماً.

بلغت دهشته حد الذهول، وهو يحدق في وجهها، على نحو جعلها تقول في حدة:

- سيادة الرئيس .. نحتاج إلى رأيك في هذا الشأن.

انتفض الرئيس الأمريكي، كما لو أنه يفيق من سبات عميق، وهتف بكل توتر الدنيا:

- رأيي أنا ؟!

انعقد حاجباها، على نحو منحها مظهراً أكثر قسوة وصرامة، وهي تقول:

- أنت رئيس البلاد، والقرار قرارك.

هتف في عصبية:

- أين وزير الدفاع؟! أين نائب الرئيس؟! أين الـ ...

قاطعته مرة أخرى، في لهجة صارمة قاسية:

- سيادة الرئيس.. ألن تطالع الإنذار أولاً؟!

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكي في شدة، والتقط منظار القراءة الخاص به، وهو يقول في حدة:

- بالتأكيد.

ثم صاح بها في غضب، وهو يلتقط الإنذار مرة أخرى:

- ولكن المرة القادمة، حاولي أن تتحدثي إليّ بأسلوب أكثر لياقة.. أنا رئيس أقوى دولة في العالم.

غمغمت في ضجر:

- أعلم هذا.

جرت عيناه في سرعة، على كلمات ذلك الإنذار، الذي وصل إلى [البيت الأبيض]، مقر الرئاسة الأمريكية، عبر جهاز الفاكس، الخاص بمستشارة الأمن القومي شخصياً، ومزيج من الدهشة والغضب يتصاعد في أعماقه، قبل أن يهتف في حدة، وهو يلقي الإنذار جانباً:

- كيف يجرءون؟!

أجابته مستشارة الأمن في سرعة:

- يجرءون، لأنهم أعطونا دليلاً على قوتهم بالفعل، يا سيادة الرئيس، عندما أزالوا المنطقة التاسعة والأربعين من الوجود، بسلاح مازال الخبراء يجهلون ماهيته، حتى هذه اللحظة.

ثم أشارت إلى الإنذار، مستطردة:

- ومن الواضح أنهم يستعدون لإثبات قوتهم مرة أخرى، لقد طلبوا منا متابعة هبوط مكوك الفضاء، الذي سيصل إلى الأرض، خلال اثنتي عشرة دقيقة من الآن.

- بدا عليه التوتر، وهو يقول:

- وما الذي يمكن أن يفعلوه به؟!

هزت رأسها، قائلة:

- لا أحد يدري.

ثم استدركت في سرعة :

- ولكنني أمرت بمتابعة عملية الهبوط لحظة فلحظة ، ورصد أية ظواهر غير طبيعية ، ترتبط بها ، على نحو مباشر ، أو غير مباشر .

انتزع الرئيس الأمريكي منظاره عن عينيه ، وهو يقول في توتر شديد :

- الأمر شديد الخطورة .. فلا يمكننا أن نسمح لأية دولة بتهديدنا على هذا النحو ، دون أن نتخذ إجراءً شديد العنف والصرامة ضدها ، وإلا سقطت هيبتنا الدولية ، وضاعت مصداقيتنا كدولة عظمى ، تتزعم النظام العالمي الجديد .

عقدت مستشارة الأمن القومي كفيها خلف ظهرها ، وهي تقول ، في حزم واضح :

- إنها ليست دولة .

تطلع إليها الرئيس الأمريكي مستنكرًا ، فتابعت بنفس الحزم :

- وهي ليست منظمة إرهابية أيضًا .

سألها في حدة :

- وكيف يمكنك الجزم ؟!

أجابته في سرعة وحزم :

- الدول ستتباهى بقوتها ، والمنظمات الإرهابية لها مطالب سياسية دومًا ، أما خصومنا ، فمطالبهم مادية بالدرجة الأولى .

هتف في غضب :

- وأكثر مما ينبغي .. إنهم يطلبون مائة مليار دولار ! هل تدركين ضخامة المبلغ ؟!

أجابته في برود :

- نعم .. إنه يقارب ما اعتمده الكونجرس ، كميزانية لحربنا مع (العراق) ، الذي نجحنا في احتلاله ، دون أن نعثر فيه على أية أسلحة دمار شامل ، أو ....

قاطعها في حدة :

- كفى .

ثم تراجع في مقعده ، وراح يحك ذقنه بضع لحظات ، في توتر بالغ ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً في عصبية :

- كيف يمكنني إقناع الكونجرس ، بالموافقة على مبلغ كهذا ؟!

أجابته في حزم :

- سنفكر في وسيلة ما ، إذا ما اضطرتنا الأمور إلى هذا .

ثم أشارت إلى التلفاز الضخم ، في المكتب البيضاوي(*) ، وهي تضيف في صرامة :

(*) اسم يطلق على حجرة المكتب الخاص برئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، نظرًا لشكله شبه البيضاوي .

– بعد أن نشاهد مايفعلونه .

التقى حاجبا الرئيس الأمريكي ، وهو يقول :

– آه .. كنت أنسى أمر مكوك الفضاء .

ضغطت زر تشغيل التلفاز ، وهي تقول :

– وكيف يمكنك أن تنسى أمراً كهذا ؟!

مطّ شفتيه ، دون أن يجيب ، وتابع المشاهد على الشاشة في اهتمام بالغ ..

كانت عدسات المصورين تنقل عبور المكوك الفضائي للغلاف الجوي الأرضي ، والنيران الملتهبة من الاحتكاك تحيط به ، وهو يقترب من سطح الأرض ..

ويقترب ..

ويقترب ..

و ....

وفجأة ، دوى الانفجار ..

كان المكوك قد بلغ ارتفاع سبعة كيلومترات ، عن سطح الأرض ، وكل آلات المتابعة تشير إلى أن الأمور تسير على

مايرام ، عندما انفجر بغتة ، أمام عدسات المصورين ، وعيون المتابعين ..

انفجار هائل ، أضاء السماء كلها ، وبدا أشبه بشمس صغيرة ، لثانية أو ثانيتين ، قبل أن تحيط به سحابة دخان هائلة ، وتنتشر شظاياه على مساحة واسعة للغاية ..

ومع الانفجار ، انتفض جسد مستشارة الأمن القومي في عنف ، في حين اعتدل الرئيس الأمريكي بحركة حادة ، هاتفاً :

– مستحيل !

كان المشهد رهيباً بحق ، إلى حد لايمكن تصوره ..

بل كان كارثة مخيفة ، على أي مقياس ..

مكوك فضائي تلاشى ، في لحظات معدودة ، وعلى متنه تسعة من رواد الفضاء ، الذين احتاج إعدادهم إلى سنوات طوال ، من التدريب والتنسيق ، وبرامج رفع الكفاءة ..

كانت كارثة أكثر من رهيبة ..

أكثر بكثير ..

وللوهلة ، لم ينتبه الرئيس الأمريكي ، أو مستشارة الأمن

القومي ببنت شفة ، وكلاهما يحدق في شاشة التلفاز ، بكل ذعر وذهول الدنيا ، والمذيع يصرخ في انفعال جارف ، واصفًا ما حدث أمام عينيه ..

ثم فجأة ، هتفت مستشارة الأمن القومي :

- يا للهول !

وهتف الرئيس الأمريكي ، في انفعال عصبي :

- أريد الاجتماع بوزير الدفاع فورًا ، واطلبي عقد جلسة سرية عاجلة للكونجرس ، في أسرع وقت ممكن .

التقى حاجبا مستشارة الأمن ، وهي تقول :

- سأوصلك بوزير الدفاع على الفور ، أما بشأن تلك الجلسة السرية ، فالأفضل أن ننتظر بعض الوقت ، حتى تتضح الصورة أكثر ، فما زال أمامنا سلاح ، لم نلجأ إليه بعد .

سألها في توتر :

- أي سلاح هذا ؟!

قالت في حزم :

- جهاز المخابرات .

ثم عقدت ساعديها أمام صدرها ، قبل أن تضيف في صرامة :

- مخابراتنا .

وكان هذا ينقل الموقف كله إلى أبعاد جديدة ..

أبعاد خطيرة ..

للغاية ..

* * *

« لست أصدق نفسي .. »

هتف (أدهم) بالعبارة ، في مرح بالغ ، وهو يلوح بذراعه كلها ، داخل سيارة (منى) ، التي تنطلق بسرعة مرتفعة نسبيًا ، في طريقها إلى مدينة (فايد) المصرية ، فابتسمت (منى) في هدوء ، قائلة :

- ما الذي لا تصدقه بالضبط ؟!

أطلق ضحكة ، صافية قصيرة ، مجيبًا :

- (أدهم صبري) يحصل على إجازة طويلة ! كم حلمنا بهذا ، عندما كانت الأمور تحتدم لفترة طويلة ، وكم كان

ورفض في إصرار مهذَّب ، مؤكِّدًا أنه يجد راحته ومتعته في عمله ، وليس العكس .

بدت ابتسامتها باهتة ، وهي تقول دون حماسة :

- كل شيء يتغيَّر .

التفت إليها (قدري) في اهتمام ، وتطلَّع إليها بضع لحظات في صمت ، قبل أن يسألها :

- أنت لا تشعرين بالارتياح تجاه هذا .. أليس كذلك ؟!

صمتت هنيهة بضع لحظات ، قبل أن تومئ برأسها ، دون أن تنبس ببنت شفة . فسألها (قدري) ، في اهتمام كبير :

- ما الذي يقلقك ؟!

أجابته في سرعة :

- (أدهم) نفسه .

سألها ، وقد تحوَّل اهتمامه إلى قلق واضح :

- ماذا عنه ؟!

تنهَّدت في عمق ، قبل أن تجيب ، وهي تتابع بسيارتها الطريق الرئيسي ، الموازي لقناة (السويس) ، في (فايد) ، ثم تنحرف إلى اليسار :

- لو أنك شاركته مهامه ، بنفس القدر الذي فعلته أنا ، لأدركت أنه من العسير على مثله ، أن يتوقَّف فجأة عن القتال والصراع من أجل وطنه ، ويكتفي بممارسة رياضة الصيد ، داخل قارب صغير ، على شاطئ القناة .

قال (قدري) ، وقد تضاعف قلقه :

- إنها مجرد إجازة .

سألته ، وهي تنطلق في ذلك الطريق :

- هل تعتقد هذا حقًّا ؟!

صمت طويلاً هذه المرة ، وهو يتململ في مجلسه ، ويشرد ببصره ، قبل أن يجيب في حزم :

- كلاَّ .

لم يتبادلا كلمة واحدة إضافية ، حتى بلغا تلك الفيلا الأنيقة ، ذات البوابة المصمتة ، التي تتميَّز عن غيرها باسم (مصر) ، المحفور على إطارها العلوي ، وبجدار السور القصير ، الذي يقود إلى شرفتها الأمامية ، والذي حمل ألوان العلم ، وكأنما يعلن صاحبها مصريته ، ووطنيته ، وزهوه بالانتماء إلى هذا العلم بالتحديد ..

ولقد استقبلهما (أدهم) بنفسه، بابتسامة ترحاب كبيرة، وهو يقول:

- حمدًا لله على سلامتكما.. من يصدق أن نلتقي هنا، دون قتال أو صراع؟!

غمغم (قدري):

- نعم.. من يصدق؟!

أما (منى)، فقد صمتت لحظة، ثم قالت في بطء وحزم:

- أنا عاجزة عن التصديق.

رمقها (أدهم) بنظرة خاطفة، قبل أن يقول:

- ينبغي أن تبذلي جهدًا أكبر إذن.

قادهما عبر الممر العصري، إلى الشرفة الأمامية، التي تطل على مياه القناة مباشرة، ولم تمض لحظات، حتى كانت أكواب الشاي الساخن أمامهم، و(أدهم) يبتسم، قائلاً:

- من المدهش أنني أمتلك هذه الفيلا الصغيرة، منذ ما يزيد على السنوات العشر، ولكنني لم أدرك جمالها، إلا منذ يومين فحسب.. إنها هادئة جدًا، وخفيفة الظل، و....

« ماذا هنالك بالضبط؟! »

قاطعته (منى) بالسؤال فجأة، فصمت بضع لحظات، وهو يتطلع إلى مياه القناة، في شرود واضح، قبل أن يلتفت إليها، متسائلاً، في هدوء شديد:

- وماذا هنالك يا (منى)؟!

تطلعت إلى وجهه مباشرة، وهي تقول:

- أنت تجيب عن سؤالي في هدوء.

تنقل (قدري) ببصره بينهما في صمت، وهو يتساءل عما تعنيه (منى)، التي لم تفسح له مجالاً طويلاً للتساؤل، وهي تستطرد في حزم:

- هدوء أكثر مما ينبغي.

بدا قويًا، وهو يتطلع إلى عينيها، متسائلاً:

- وما الذي يعنيه هذا في رأيك؟!

مالت إلى الأمام، قائلة في حزم:

- أنك تخفي شيئًا.

سألها بنفس الهدوء:

- مثل ماذا؟!

قالت في سرعة :

ـ أخبرني أنت .

تطلع كلاهما إلى عيني الآخر طويلاً، بعد أن نطقت عبارتها ، ثم لم يلبث (أدهم) أن قطع حبل الصمت ، قائلاً :

ـ إنك تحمّلين الأمور ما يفوق طاقتها يا (منى) .

قالت في حزم وثقة :

ـ كلا ..

ثم عادت تميل نحوه ، مستطردة :

ـ (أدهم) .. أنا أعرفك جيداً .. وربما أكثر من نفسي ، ولو أنك لا تخفي شيئاً ، لما شعرت بكل هذا القلق والتوتر في أعماقي .

حاول أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ هل يمكنك قراءة أفكاري ؟!

« هذا صحيح .. »

جاء الجواب على لسان (قدري) ، بكل الحزم والحسم ، قبل أن يتابع في حرارة وصدق :

ـ مع طول الفترة ، التي قضيتها في جهاز المخابرات ، لم أر اثنين ، أشد منكما حبًا لبعضهما ، إلى الحد الذي أتصور معه أن روحيكما قد امتزجتا ، وصار كل منكما قادرًا على قراءة أفكار ومشاعر الآخر ، دون أن ينبس أيكما ببنت شفة .

نقل (أدهم) بصره بينهما ، في بطء وصمت ، ثم أدار عينيه إلى مياه القناة ، وراح يتطلع إليها طويلاً ، وكلاهما يحترم صمته ، ويتطلع إليه في ترقب ، حتى استدار إليهما فجأة ، وقال بمنتهى الحزم :

ـ نعم .. أنا أخفي شيئاً .

ارتفع حاجبا (قدري) في دهشة ، وكأنما لم يكن يتوقع هذا ، في حين هتفت (منى) في حرارة :

ـ كنت واثقة .

وقبل حتى أن تتم هتافها ، كان هو يستطرد ، بصرامة أدهشتهما :

ـ ولن أفصح عنه أبداً .

سألته (منى) ، في سرعة واهتمام :

ـ حتى لأصدقائك ؟!

أجابها بمنتهى الحزم والحسم :

- حتى ألقى نفسه .

انطلقت من أعماقها تنهيدة حارة ، وهي تتراجع في مقعدها ، قائلة - في شيء من الارتياح :

- فهمت .

أدهش أسلوبها وقولها (قدري) ، الذي تساءل في توتر :

- وما الذي فهمته بالضبط ؟!

ابتسمت ابتسامة باهتة ، وهي تقول :

- الشيء الوحيد ، الذي يمكن أن يمنع (أدهم) ، من مشاركة أصدق أصدقائه سره .

تساءل (قدري) في حذر ، لم يدر هو نفسه سببه بالضبط :

- أي شيء هذا ؟!

أجابت في سرعة ، وحزم ، واقتضاب :

- (مصر) .

ولم تكن تحتاج إلى قول المزيد ..

لقد فهم (قدري) على الفور ما تعنيه ..

فهمه تمامًا ..

* * *

نفثت الزعيمة الغامضة دخان سيجارتها الحمراء في عمق وبطء ، وهي تراجع كل التقارير ، الواردة من مختلف الجهات ، قبل أن ترتسم على شفتيها ابتسامة ظافرة كبيرة ، مغمغمة :

- عظيم .. كل شيء يسير وفقًا للخطة .. إطلاقنا سيبلغ الهدف ، في الموعد المحدد تمامًا .

ابتسم قائد قواتها ، وهو يقول :

- المدهش أنهم لم يدركوا حتى الآن ، طبيعة السلاح الذي نستخدمه .

نفثت دخان سيجارتها في استمتاع ، وقالت بابتسامة خبيثة :

- اطمئن .. لن يخطر هذا ببالهم قط .. في هذه المرحلة على الأقل .

ظلت ابتسامتها محفورة على شفتيها بضع لحظات ، قبل أن تتلاشى فجأة ، وهي تسأل في اهتمام صارم :

- هل عرفتم أين ذهب مستر (X) ؟!

هزّ القائد رأسه نفيًا ، وقال في توتر :

ـ لم يظهر في أي مكان بعد ، ولا أحد يعلم أي شيء عنه .

مطّت شفتيها في غضب ، وهي تقول :

ـ أمر طبيعي ، فلا أحد يعرف هويته الحقيقية .. ثم إنه يحتاج إلى بعض الوقت ، ليعيد تنظيم صفوفه ، ومحاولة استعادة سيطرته على الأمور .

ثم انعقد حاجباها ، في صرامة وحشية ، وهي تضيف :

ـ ولا ينبغي أن نمنحه الفرصة لهذا أبدًا .

صمتت لحظة ، وهي تفكّر في عمق ، وتنفث دخان سيجارتها الحمراء في بطء ، قبل أن تقول في حزم :

ـ سندفع الخطة إلى الأمام ، فنختصر أربعًا وعشرين ساعة على الأقل ، من جدولنا السابق .

تساءل الرجل في قلق :

ـ ألن يؤدي هذا إلى ..

قاطعته بكل شراسة الدنيا :

ـ استعد لتنفيذ الضربة الثالثة ، بعد ساعة واحدة من الآن .

هتف في دهشة مستنكرة :

ـ ساعة واحدة ؟!

هبّت من مقعدها بحركة حادة ، وعادت تنفث دخان سيجارتها ، وهي تقول في حزم :

ـ لن نمنحهم جميعًا فرصة للتفكير والتدبير .. سنضرب ضرباتنا على نحو سريع ، متلاحق ، بحيث نربك العقل ، ونشتت تفكيرهم ، ونجبرهم على اتخاذ قرارات سريعة مرتبكة .

تساءل في عصبية :

ـ وماذا لو جاءت قراراتهم في غير صالحنا ؟!

هتفت :

ـ مع كل ما سيملأ قلوبهم من خوف واضطراب ؟! أشك في هذا كثيرًا .

التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، قبل أن تلقيها بعيدًا ، وهي تقول ، في لهجة أقرب إلى الجذل :

ـ سنضرب ضربتنا الثالثة ، ثم نعلن عن الهدف الرابع ، والذي ينبغي أن يكون ضخمًا ومدهشًا ، و ....

بترت عبارتها بغتة ، دون أى سبب منطقى ، وشردت ببصرها طويلاً ، وعيناها تتألقان فى جذل ، امتزج مع تلك الابتسامة على شفتيها ، للإيحاء بأنها تجرى تعديلات جوهرية ، فى خطتها الكبيرة المعقدة ..

تعديلات ضخمة ..

وقوية ..

ورهيبة ..

إلى أقصى حد ..

ولقد استغرقها ذلك الشرود لحظات ، قبل أن تقول فجأة ، وهى تلوّح بسبابتها فى الهواء :

- وسيلة إعلان الهدف الرابع نفسها ، لابد أن تكون قوية ومثيرة ، و ....

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف :

- ومؤثرة للغاية .

قالتها ، وأطلقت ضحكة عالية جديدة ، يفهمها قائد قواتها جيدًا ، لذا فقد اعتدل فى وقفة عسكرية ثابتة ، وهو يقول :

- أوامرك أيتها الزعيمة .

أشعلت سيجارة حمراء جديدة ، وهى تقول :

- استمع إلىّ جيدًا ، ونفذ ما سآمرك به بالحرف الواحد ، ودون مناقشة .

ولأن الرجل يثق بعبقريتها ثقة عمياء ، فقد استمع إليها ، وأنصت لحديثها بكيانه كله ..

والواقع أن التعديلات الجوهرية ، التى أجرتها فى خطتها ، كانت بالفعل رهيبة ..

رهيبة ومؤثرة ..

للغاية ..

* * *

٤ ـ أوراق مكشوفة ..

راجع رئيس الجمهورية، في اهتمام واضح، ذلك التقرير الورقي، الذي قدمه له مدير المخابرات العامة، قبل أن يرفع عينيه إليه، قائلاً:

ـ إذن فالأمريكيون يطلبون معرفة موقف العميد (أدهم صبري) في الوقت الحالي.

أومأ مدير المخابرات برأسه، وهو يقول:

ـ لقد أدركوا أن ما فعلناه هو نوع من المناورة يا سيادة الرئيس، مما ضاعف من غضبهم، ودفعهم إلى مطالبتنا بتحديد موقفه الحالي بالضبط، وموقفنا من عرضهم، وفي برقيتهم الأخيرة، منحونا أسبوعًا واحدًا لحسم الموقف، وإلا فسيتخذون إجراءات عنيفة ضدنا.

هتف الرئيس، في غضب مستنكر:

ـ إجراءات عنيفة ؟!! أي أسلوب وقح هذا ؟!

قال مدير المخابرات في هدوء:

ـ الأسلوب الذي تميزت به الإدارة الأمريكية الحالية يا سيادة الرئيس.. تجاربهم وخبراتهم السياسية محدودة، وطبيعتهم

زهو شديد، بما تحت أيديهم من أسلحة وقوة، ويتطلعون لاستخدامها، أو التلويح باستخدامها، في كل مواجهة مع الآخرين، حتى ولو لم تكن تستحق هذا.

وافقه الرئيس بإيماءة من رأسه، قائلاً:

ـ لن ينسى لهم التاريخ أبدًا موقفهم غير القانوني، وغير الشرعي، وغير الأخلاقي أيضًا، تجاه مشكلة (العراق)؛ فلقد ضربوا عرض الحائط بكل المؤسسات القانونية الدولية، وكل الأعراف والعهود، وتجاهلوا احتجاجات شعوب العالم.. بل وشعوبهم أيضًا، واختلقوا مجموعة من الأكاذيب المفضوحة، والادعاءات السخيفة، لتبرير اندفاعهم لاحتلال أراضي الغير بالقوة، على الرغم من مخالفة هذا لكل المبادئ الدولية..

قال مدير المخابرات في حسم:

ـ هذا اتجاه إلى خسارة الحضارة يا سيادة الرئيس، والتاريخ يؤكد أن كل الحضارات الضخمة، التي تحركت على كل جيرانها ذات يوم، قد بدأت رحلة الانحدار والانهيار، عندما أخذها زهو القوة، وتملكت منها غطرسة التفوق، وقررت أن تهاجم كل من حولها، وتحتل أراضيهم

بلا رحمة أو هوادة .. ولعل أكبر مثال على هذا هو الإمبراطورية الرومانية ، التي سادت العالم يوماً ، وسيطرت على مقاديره .. وانطلقت تفرض هيمنتها وسطوتها على الجميع ، باعتبار أنها قوة ضاربة ، لا قبل لأي كيان آخر بمواجهتها .. حتى تزعزعت وتزلزلت .. وانهارت فجأة .. مع ظهور أول قوة منافسة(*) ..

أومأ الرئيس برأسه ، وهو يقول :

- هذا صحيح .. وذلك الشعور يراود الجميع ، على نحو عجيب .. على الرغم من أن كل الشواهد توحي بأن (أمريكا) ، بقوتها الهائلة الحالية ، يمكن أن تبقى ، كقوة استعمارية مطلقة ، لقرن آخر من الزمان .

هزّ مدير المخابرات رأسه ، قائلاً :

- من يدري ؟!

صمت الرئيس لحظة ، قبل أن يقول :

- نعم .. من يدري ؟!

ثم أشار بيده ، مستطرداً :

(*) حقيقة تاريخية

- ولكن ، وحتى انهيار الإمبراطورية الأمريكية ، نتيجة لما ترتكبه من أخطاء وحماقات ، لابد أن نتخذ قراراً حاسماً ، بشأن مشكلة العميد (أدهم صبري) .. فمن الواضح أن الأمريكيين لن يقبلوا قط فكرة إرجاء المواجهة .. وأنهم يصرون على حسم الأمر ، في أقرب وقت ممكن .

أشار مدير المخابرات بسبّابته ، قائلاً :

- من الواضح أن الإسرائيليين يضغطون عليهم ، على نحو أو آخر ؛ لأن (أدهم) يعتبر ، بالنسبة لهم ، العدو رقم واحد .

غمغم الرئيس :

- أمر طبيعي .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- وخاصة بعدما فعله بهم ، في عملياته الأخيرة(*) .

وعاد إلى صمته ، وهو يتجه نحو مكتبه ، فتبعه مدير المخابرات ببصره ، حتى استقر خلف مكتبه ، وهو غارق في تفكير عميق ..

ولقد طال صمت الرئيس وتفكيره ..

(*) راجع قصة (الطرق المشحونة) .. المغامرة رقم (١٤٣)

طال ..

وطال ..

وطال ..

ولم يحاول مدير المخابرات أن يقاطعه بحرف واحد ، محترمًا ذلك الصمت ، الذي ينبئ عن دراسة عقلية وافية ، لكل ظروف وملابسات الموقف ، تمهيدًا لاتخاذ قرار حاسم بشأنه ، و ...

وفجأة ، رفع الرئيس عينيه إليه ، ونظراته تحمل كل الحزم ، والحسم ، والصرامة ، والقوة ..

وبحركة هادئة ، اعتدل الرئيس على مقعده ، قائلاً :

ـ لن يمكننا أن نفعل هذا .

ثم نهض واقفًا ، وهو يستطرد :

ـ ومهما كانت النتائج ، فلن نسمح لأية جهة أجنبية ، بأن تملي علينا ما ينبغي أن نفعله .

ابتسم مدير المخابرات بشاشة هادئة ، تحمل لمحة إعجاب وتقدير واضحة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. بالتأكيد .

واصل الرئيس ، وهو يتحرك في حجرة مكتبه بحزم :

ـ العميد (أدهم صبري) مواطن مصري ، ورجل مخابرات لنا ، خدم وطنه وأمته ، وبذل نفسه وجهده ، وجازف بحياته نفسها في سبيل (مصر) .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف بكل القوة :

ـ و (مصر) لا تتخلى عن أبنائها قط .

لم يتمالك مدير المخابرات نفسه ، وهو يهتف في حماسة :

ـ سلم فوك يا سيادة الرئيس .

شد الرئيس قامته في اعتداد ، وهو يقول في حزم :

ـ أبلغ الأمريكيين ـ رسميًا ـ رفضنا لعرضهم ، واستنكارنا البالغ لتهديدهم ، واعتراضنا الشديد على تدخلهم في شئوننا الداخلية ، وأخبرهم أن العميد (أدهم صبري) باق في موقعه ، ولا توجد أية نية لإقالته .. ليس الآن ، ولا حتى في المستقبل .

قال مدير المخابرات في حزم :

ـ سأفعل هذا فورًا يا سيادة الرئيس .

أشار إليه الرئيس بسبّابته ، قائلاً :

ـ هذا ليس كل شيء .

توقف المدير ، ليسأله في اهتمام :

ـ ماذا أيضًا يا سيادة الرئيس ؟!

بدا الرئيس حازمًا حاسمًا ، وهو يقول :

ـ اليوم سأصدر قرارًا ، بمنح العميد (أدهم صبري) قلادة النيل ، تقديرًا لشجاعته ، وتفانيه في خدمة الوطن .

تألقت عينا مدير المخابرات ، وهو يقول في انبهار :

ـ سيادة الرئيس .. هذا تحدٍّ لإرادة الأمريكيين .

أجابه الرئيس ، بكل حزم وصرامة الدنيا :

ـ بالضبط .

ازدادت عينا مدير المخابرات تألقًا ، وهو يتطلّع إلى الرئيس في صمت يموج بالاحترام والتقدير ، على الرغم من أن عقله كان يحمل ـ طوال الوقت ـ ذلك التساؤل المقلق ..

تُرى كيف سيكون رد فعل الأمريكيين ؟!

كيف ؟!

* * *

« هذه الجلسة سرية .. »

نطق الرئيس الأمريكي العبارة ، في توتر بالغ ، وهو يقف على منصة قاعة اجتماعات الكونجرس الرئيسية ، قبل أن يدير عينيه في وجوه الحاضرين ، ثم يقول :

ـ ومن المؤكد أن جميعكم تتساءلون ، عن سر عقد هذه الجلسة العاجلة والسرية .. والواقع أيها السادة هو أن لهذا سببًا مهمًا .. مهمًا وخطيرًا للغاية .. بل وإلى أقصى حد .

جذبت كلماته انتباه الجميع بشدة ، فلوّحوا لتصافحهم التام ، على الرغم من لحظة الصمت التي تلاها ، قبل أن يتابع في عصبية شديدة الوضوح :

ـ أيها السادة .. نحن مهددون .

أثارت عبارته عاصفة من الهمهمة في المكان ، وهتف أحد أعضاء الكونجرس في غضب :

ـ ما الذي يعنيه هذا القول المبهم ؟!

وصاح آخر :

ـ أهي خدعة جديدة ، لنيل اعتمادات إضافية ؟!

وهتف ثالث :

ـ أهي مناورة ، لاتهام تنظيم ما ..

فقاطعه الرئيس الأمريكي في عصبية :

ـ ما أصاب مكوك الفضاء لم يكن مجرد حادث .

عبارته هذه كانت الومضة الفعلية .. فلم تكد تنطلق ، عبر مكبرات الصوت في القاعة ، حتى تفجرت فيها قنبلة من الصمت ، وكل العيون المتسعة المذعورة ، تتطلع إليه في تساؤل قلق ، فتابع في توتر بالغ :

ـ أظن أن مستشارة الأمن القومي ، هي خير من يمكنه توضيح الموقف كله .

انتقلت العيون كلها إلى مستشارته ، التي نهضت في نشاط ، واتجهت نحو الميكروفون ، وقالت دون مقدمات :

ـ على الرغم من أننا أقوى قوة ضاربة في العالم ، في الوقت الحالي ، إلا أننا نواجه خصمًا مجهولاً ، لم ننجح في كشف هويته ، أو تحديد طبيعة السلاح ، الذي ينفذ به عملياته بعد .

مرة أخرى ، تفجرت عاصفة من الهمهمة في المكان ، وانطلقت عشرات التساؤلات المذعورة ، عن طبيعة الموقف ، والهوية المحتملة للخصم ، ولكن مستشارة الأمن السمراء أوقفت كل التساؤلات ، بإشارة صارمة من يدها ، وهي تقول :

ـ نحن نبذل بالفعل قصارى جهدنا ، للتوصل إلى أية معلومات

محتملة ، وكل أجهزتنا الأمنية تتحرك بأقصى قوتها وسرعتها ، في سباق مستميت مع الزمن ، لكشف كل ما يمكن كشفه .

صمتت لحظة ، ولكن أحدًا في القاعة لم ينبس ببنت شفة ، وكلهم ينتظر كل ما ستواصل به حديثها ، فتابعت في حزم :

ـ ولكن المشكلة أن الخصم لا يمهلنا الوقت ؛ لمعرفة أي شيء ، مما يثبت أنه محترف ، وذكي ، ويدرك جيدًا طبيعة العمل ، في مثل هذه الظروف ، ولكنه ليس دولة رسمية ، أو حكومة منظمة ، أو حتى تكوينًا إرهابيًا معروفًا ، ولكنه ، وهذا هو العجيب ، أقرب إلى التنظيم الإجرامي ، وهذا لأن مطالبه قد اقتصرت فقط على المال ..

صمتت لحظة أخرى ، أدارت عينيها خلالها ، في كل الوجوه الشاحبة المذعورة ، ثم استطردت في بطء ملحوظ :

ـ مائة مليار دولار .

انطلقت شهقات قوية ، فور ذكر المبلغ ، وصاح أحد الأعضاء في غضب شديد :

ـ وهل سنخضع لهذا الابتزاز ؟!

أجابته مستشارة الأمن في صرامة :

ـ أخشى أننا ، وفي الوقت الحالي ، لا نملك خيارًا ، تجاه هذا الموقف .

صاح عضو آخر :

- هل سنستسلم إذن ؟!! إنها فضيحة !

وهتف آخر :

- أكبر قوة في العالم تستسلم لمبتز ؟! يا للعار !

انعقد حاجبا مستشارة الأمن ، وبدا وجهها شرسًا قبيحًا ، وهي تقول في غضب صارم :

- من الواضح أنكم لا تستوعبون الموقف جيدًا أيها السادة .. خصمنا ، أيًا كانت هويته ، نجح - خلال الأيام القليلة الماضية - في توجيه ثلاث ضربات ، بالغة القوة والعنف ، لثلاثة أهداف بالغة الخطورة ، في أماكن مختلفة ، فلقد سحق تمامًا المنطقة العسكرية التاسعة والأربعين ، ثم نسف مكوك الفضاء ، أمام عدسات المصورين ، قبل دقائق قليلة من هبوطه ، ومنذ أقل من ساعة واحدة ، أزال من الوجود منشأة كيماوية ، كنا نعتبرها من أدق أسرارنا العسكرية .

وشدت قامتها ، وهي تواصل بمنتهى الصرامة :

- باختصار .. خصمنا يعرف عنا كل شيء ، ونجهل عنه كل شيء ، ولديه سلاح خطير إلى درجة مفزعة .. مرعبة ..

أعلم أن بعضكم سيتهمنا بالإهمال والتقصير ، والبعض الآخر سيضجرنا بمحاضرات طويلة ، حول ضرورة الصمود والتصدي ، وفائدة عدم الاستسلام للمبتزين ، ولكن دعوني أخبر كل هؤلاء ، وأخبركم جميعًا ، دون أدنى تعقيد أو تجميل للأمر ، أن موقفنا ضعيف للغاية .. بل ويصل إلى أقصى حد ممكن ؛ فحتى هذه اللحظة انتقى خصمنا أهدافًا ذات طابع خاص ، فبعضها لا يعلم به أحد ، والبعض الآخر قد يثير تفسيره الشجون والحزن والأسى ، ولكنه لن يوحي بوجود سبب خارجي مقصود ، مثلما حدث لمكوك الفضاء ، ولو أننا رفضنا تلبية مطالبه الآن ، فربما ينتقل إلى مرحلة جديدة ، يوجه فيها سلاحه إلى أهداف واضحة ومثيرة للاهتمام والانتباه ، وعندئذ سيضعنا في موقف بالغ الحرج ، وربما ينكشف معه ضعفنا ، في مواجهة خصم مجهول ، وتنهار معه هيبتنا ، داخليًا وخارجيًا .

نهض أحد الأعضاء القدامى ، يسأل في حدة :

- هل تطلبون اعتماد مبلغ مليار دولار ، لتقديمها إلى مبتز ؟!

أجابته المستشارة ، في سرعة وحزم :

- ليس هذا فحسب يا سيناتور ، ولكننا نطالب بأن يتم هذا بأقصى سرعة ممكنة أيضًا .

هتف عضو قديم آخر ، من حزب معارض :

- مستحيل ! لن نوافق على مبلغ كهذا ، دون أدلة قاطعة ، تقدمونه إلى المجلس .

صاحت به مستشارة الأمن :

- إنكم ستوافقون على اعتماد المبلغ ، حفاظاً على هيبة (أمريكا) ، وليس من أجل ..

« دعيني أساعدك على إقناعهم .. » ..

انطلق الصوت بغتة ، من خلف ظهر مستشارة الأمن القومي ، في نفس اللحظة التي أضيئت فيها تلك الشاشة الكبيرة ، التي تستخدم لعرض مشروعات الحكومة ، فاستدارت كل العيون إليها بحركة واحدة ، وانعقد حاجبا مستشارة الأمن القومي في شدة ، وانطلقت بعض الشهقات من الحاضرين ، في حين هتف الرئيس الأمريكي ، بكل عصبية الدنيا :

- يا إلهي ...

لم يتم عبارته ، ولكنه حدق كالآخرين في صورة تلك المرأة الفاتنة ، التي بدت على الشاشة ، وهي تمسك سيجارتها الحمراء في أناقة ، وتنفث دخانها في عمق ،

وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة ظريفة ، وصوتها الناعم يقول متابعاً :

- فهؤلاء السيناتورات شيوخ العقول ، ويحتاجون إلى وسيلة إقناع قوية .

امتلأت نفس مستشارة الأمن القومي بالغضب ، فهتفت برئيس طاقم أمنها ، وهي تلوح في عصبية :

- هذا البث يتم من داخل مبنى الكونجرس ، فهذه الشاشة ترتبط بدائرة مغلقة .. انتشروا في المكان ، وراجعوا خريطة شبكة البث ، و ....

قاطعها الصوت على الشاشة بغتة ، وصاحبته تقول ساخرة :

- لا تتعبي نفسك كثيراً يا عزيزتي ، فالبحث عن نقطة البث ، فما ترينه أمامك مجرد شريط مسجل ، يتم بثه من النقطة (٤٨ ـ W) ، وقد تم تلغيم شبكة البث ، بحيث تنفجر كلها ، مع كل ما يحيط بها ، عند أية محاولة لإيقاف البث ، أو انتزاع الشريط .

ثم هزت كتفيها في استهتار ، ونفثت دخان سيجارتها في عمق ، قبل أن تتابع ، بنفس اللهجة الساخرة :

- ليس أمامكم إذن سوى الاستماع إلى ما أقول .

وتبدلت لهجتها بغتة، لتحمل قدرًا مخيفًا من الصرامة والوحشية، وهي تضيف في شراسة:

- والخضوع لما آمركم به.

اتسعت العيون كلها في ارتياع مذعور، ولكن أحدًا لم ينبس ببنت شفة، في حين غمغمت مستشارة الأمن القومي في غضب:

- هناك جاسوس في المجلس.

ثم استدارت إلى قائد فريق أمنها، مستطردة:

- ذلك الشريط المسجل سيمحو نفسه بالتأكيد، في نهاية العرض، وإلا لما ظهرت هذه المخلوقة أمامنا بوجه عار هكذا.. لذا أريد منكم أن تلتقطوا صورها من هذه الشاشة، وترسلوها فورًا إلى المخابرات المركزية، لتحديد هوية المرأة.

مع قولها هذا، كانت الزعيمة تكمل، على شاشة العرض:

- الأهداف التي تم تدميرها، حتى هذه اللحظة، كانت مجرد وسيلة لتقديم أنفسنا إليكم.. إلى الحكومة، والمسئولين العسكريين، والسياسيين.. أما الأهداف القادمة فستنقسم إلى قسمين.

توقفت لتنفث دخان سيجارتها في بطء متعمد، قبل أن تتابع:

- فلكي نساعدكم على اتخاذ القرار، دون جدل عقيم، أو مناقشات طويلة، لا طائل منها، قررت أن أمنحكم ثماني وأربعين ساعة فحسب، لإعلان موافقتكم على دفع المبلغ المطلوب، والموافقة على كل شروط تسليمه، وبعدها بثانية واحدة، سيتم نسف هدفين أساسيين: تمثال (أبراهام لينكولن)[*] في (واشنطن)، وتمثال الحرية في (نيويورك).

شهق الأعضاء في رعب، مع ذكر الهدفين القادمين، اللذين يعتبرهما الجميع رمزًا للولايات المتحدة الأمريكية، واتسعت عينا الرئيس الأمريكي في ارتياع، وهو يتخيل الموقف، وتأثيره الرهيب على عملية إعادة انتخابه، في حين غمغمت مستشارة الأمن القومي في حدة:

- لا بد أن نظفر بهذه المخلوقة.. لابد.

(*) أبراهام لينكولن (١٨٠٩ - ١٨٦٥م): الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، علم نفسه طوال حياته، ومارس المحاماة لبعض الوقت، أصبح رئيسًا في عام ١٨٦٠م، وارتبط اسمه بالحرب الأهلية، وإلغاء العبودية والرق، ويعتبر رمزًا للعدالة، في تاريخ أمريكا كله.

أما الزعيمة ، فقد استطردت في لهجة توحي بالعبث والاستمتاع :

— أعلم أن هذا سيحرجكم بالطبع ، أمام الشعب الأمريكي كله ، ولكنها مجرد البداية ، فبعد اثنتي عشرة ساعة فحسب ، ولو استمر عنادكم ورفضكم ، سأرفع عدد الأهداف إلى ثلاثة ، وسأزيل من الوجود ، في لحظة واحدة ، البيت الأبيض ، ومبنى البنتاجون (*) ، ومبنى المخابرات المركزية في (لانجلي) بولاية (فرجينيا) .

شحبت الوجوه بشدة ، مع تهديدها الأخير ، وشهق الرئيس الأمريكي ، وهو يهتف :

— البيت الأبيض ؟! مستحيل !

ومع قوله ، كانت الزعيمة تطلق ضحكة طويلة عالية ، على شاشة العرض ، وكأنها تستمتع بكل حرف نطقت به ، ثم ألقت سيجارتها ، ذات اللون الأحمر المستفز جانبًا ، في استهتار واضح ، وهي تقول :

— ولتوفروا وقتكم الثمين ، وحتى لا يضيع الكل وقتهم في فحص الشريط ، والسعي لتحديد موقعي ، دعوني أخبركم بكل الوضوح ، أن اسمي هو (لورا هيرمان) ، ولست

(*) البنتاجون : مبنى وزارة الدفاع الأمريكية .

لديكم أية معلومات سابقة عني ، ولكنكم ستتعرفون حتمًا على كل البيانات ، التي ذكرتها في طلب تأشيرة الدخول إلى أرضكم الطيبة ، التي تمنح المرء فرصة مدهشة للهو والتميز .

قالتها ، وعادت تطلق ضحكة عالية طويلة ، حملت رنة وحشية مخيفة ، تجمدت لها الدماء ، في عروق الجميع ، وهي تنهض من مقعدها الوثير ، وتهمّ بالابتعاد عن مجال الرؤية ، و ....

— مهلاً ..

نطقتها الزعيمة على الشاشة فجأة ، قبل أن تعود إلى مجال الرؤية ، مشيرة بسبابتها ، وهي تقول :

— مازال هناك أمر ، لم أذكره بعد .. في حالة موافقتكم على تلبية مطالبي ، واستعدادكم للمبلغ المتواضع ، الذي ستنقذون به أرواحكم وهيبتكم ، وهو ما لا أشك فيه لحظة واحدة ، سيكون لي شرط أخير .. شرط لن أتنازل عنه أبدًا .

وأمام عيون الجميع ، وتحت سمعهم وبصرهم ، ألقت الزعيمة شرطها الأخير ..

ولم يستوعب أعضاء الكونجرس ما الذي يمكن أن يعنيه هذا !!

ولكن الرئيس، ومستشارته الأمنية، ووزير دفاعه، ومدير المخابرات المركزية الأمريكية استوعبوا الأمر.

استوعبوه، وأدركوا أن تلك الزعامة الضخمة قد تمادت بالفعل ..

وإلى أقصى حد ممكن.

* * *

٥ ـ انقـــلاب ..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت السابعة صباحًا، بدقيقة أو دقيقتين، عندما وصلت سيارة مدير المخابرات العامة المصرية، إلى مقر رياسة الجمهورية، وغادرها المدير على عجل، متجهًا إلى مكتب الرئيس مباشرة، ولم يكد يبلغه، حتى انتبه إلى رجل أوربي الملامح، أنيق الملبس، واضح التوتر، قدمه إليه الرئيس، قائلاً بلهجة خاصة، يدرك كلاهما مغزاها جيدًا:

ـ (ألان رالدوف) .. من المخابرات المركزية الأمريكية.

صافح مدير المخابرات ذلك الأمريكي، في تحفظ واضح، وهو يتساءل:

ـ ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئة .. والمبكِّرة جدًا ؟!

قال الأمريكي، وتوتره ينعكس على صوته في وضوح:

ـ نحن نعلم أن سيادة الرئيس يبدأ يومه مبكرًا جدًا.

سأله المدير في برود:

ـ وهل أخبرتكم تقاريركم، أن سيادة الرئيس يميل إلى الزيارات المفاجئة أيضًا ؟!

ابتسم الرئيس، عندما احتقن وجه الأمريكي، وقال في عصبية:

- يقولون في بلادكم: إن الضرورات تبيح المحظورات.

هم المدير بإلقاء سؤال آخر، ولكن الرئيس أشار بيده، قائلاً بالإنجليزية:

- السيد (راكويل) هنا، بشأن العميد (أدهم).

انعقد حاجبا المدير، وهو يقول بالإنجليزية في صرامة:

- لقد أرسلنا إليكم ردًا رسميًا، في هذا الشأن.

بدا غضب عصبي، على وجه الأمريكي، في حين تراجع الرئيس في مقعده باسترخاء، قائلاً:

- السيد (راكويل) هنا لسبب آخر تمامًا، خلاف ما جاء زميله من أجله فيما مضى.

أطل التساؤل من عيني مدير المخابرات، فجفف الأمريكي عرقًا وهميًا عن جبهته، قبل أن يقول في عصبية:

- إننا نريد رجلكم (أدهم صبري).

لم يفهم المدير ما يعنيه هذا، فتساءل في حذر:

- تريدونه ؟! ما الذي تعنيه بقولك هذا بالضبط ؟!

اتسعت ابتسامة الرئيس، وهو يقول:

- الأمريكيون يطلبون مساعدة رجلنا، العميد (أدهم صبري)، بشأن مشكلة يواجهونها.

تفجرت الدهشة في كيان المدير، وهو يتطلع إلى الرئيس، الذي بدا مزهوًا إلى حد ما، وهو يشير بيده، مستطردًا:

- السيد (راكويل) يرفض الإفصاح عن طبيعة المشكلة، ولكنه يؤكد أنه ما من سبيل إلى حلها، دون الاستعانة برجلنا.

غمغم المدير، وهو يخفي دهشته العارمة في أعماقه:

- حقًا ؟!

ثم استعاد رصانته وحزمه بسرعة، مع استطرادته، وهو يعقد ساعديه أمام صدره في حزم:

- لو أنكم تواجهون مشكلة ما، تحتاج إلى تعاوننا، فعليكم طلب هذا رسميًا، وعلى نحو تنظيمي صحيح، فكل ما يمكنكم طلبه هو تعاون المخابرات المصرية، وعلينا نحن أن نقرر، من من رجالنا يصلح للمهمة، و...

قاطعه الأمريكي في عصبية:

- لن يصلح لهذه المهمة سوى رجلكم (أدهم صبري).

أجابه المدير في سرعة :

- ونحن نعتذر عن إعارتكم إياه ، فقواعدنا ولوائحنا تمنع خروج أحد رجالنا ، في مهمة خارج الحدود ، لحساب أية دولة أخرى ، وخاصة عندما يحيط الغموض بتفاصيل تلك المهمة ، أو سببها ، أو الهدف منها .

تضاعفت عصبية الأمريكي ، وهو يقول :

- ولكن أوامري تمنع الـ ...

قاطعه الرئيس هذه المرة ، بمنتهى الحزم والصرامة :

- لقد سمعت ما قاله مدير جهاز المخابرات العامة .. وهذا ردنا النهائي .. إما أن نعلم لماذا تريدون الاستعانة برجلنا ، أو تعود إلى وطنك برد سلبي حاسم .

بدت الحيرة واضحة ، على كل خلجة من خلجات رجل المخابرات الأمريكي ، الذي تلفت حوله في عصبية ، وغمر العرق البارد وجهه ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

- لابد لي من الاتصال برؤسائي أولاً .

أشار الرئيس إلى هاتفه الخاص ، قائلاً :

- ومن منعك من هذا ؟!

جفف الأمريكي عرقه الغزير ، بكل توتر الدنيا ، وهو يلتقط سماعة هاتف الرئيس ، قائلاً :

- معذرة .. لست مخولاً لاتخاذ قرارات ، على هذا المستوى .

لم يستغرق حديثه مع رؤسائه سوى دقائق قليلة ، على نحو يوحي بأنهم كانوا يتوقعون هذا الموقف المصري ، بدليل أنه لم يكد ينهي المحادثة ، حتى التفت إلى الرئيس ومدير مخابراته ، قائلاً :

- الرؤساء وافقوا على إطلاعكم على كل شيء أيها السادة ، ويناشدونكم الإبقاء على الأمر سراً ، وطيّ الكتمان التام .

مصطلح (يناشدونكم) هذا ، كان يوضح تماماً ضعف الموقف الأمريكي ، وانقلابه رأساً على عقب ، لذا فقد أشار الرئيس بيده ، وهو يقول في حسم :

- تكلم إذاً .

وهنا ، تنحنح مندوب المخابرات الأمريكية ، وبدأ يروي للرئيس ومدير مخابراته كل شيء ..

بكل التفاصيل ..

بلا استثناء ..

* * *

« لكم أبغض هؤلاء العرب .. »

نطقت مستشارة الأمن القومي الأمريكية العبارة ، بلهجة حملت كل مقت الدنيا ، وهي تقف داخل المكتب البيضاوي للرئيس الأمريكي ، في قلب البيت الأبيض ، فلوّح وزير الدفاع بيده ، وهو يقول في حدة :

- ليس هذا وقت إبراز المشاعر الشخصية .. كل دقيقة لها ثمنها الآن ، وليس من حقنا أن ننشغل بأمور شخصية ، والوقت يمضي على هذا النحو .

مطّت مستشارة الأمن شفتيها في مقت ، وهي تقول :

- ولكنها الحقيقة .. أنا أبغضهم بشدة ، منذ .. منذ ..

لم تستطع إتمام عبارتها ، فقال مدير المخابرات ، في غضب صارم :

- دعيني أخبرك أنا منذ متى ؟! منذ خذلك عربي ، وقعت في غرامه ، في أثناء فترة دراستك الجامعية .

احتقن وجهها بشدة ، وهي تهتف :

- إنني لم أقع أبدًا في ...

قاطعها مدير المخابرات في حدة :

- أمن الضروري أن أخبرك باسمه ، وجنسيته ، والوظيفة التي يشغلها في دولته حاليًا ؟!

عضت شفتيها السفلى في غضب ، قبل أن تقول :

- كلاّ .. ليس من الضروري أن تفعل .

هتف الرئيس الأمريكي في حدة :

- كيف يلائم هذا الحديث السخيف ؟! ما شأن بغضك للعرب ، بما نواجهه الآن ؟!

لوّحت بذراعيها ، قائلة :

- تلك الحقيرة اشترطت أن يكون ذلك المصري ، الذي أقنعنا دولته بضرورة التخلص منه ، هو المفاوض الرئيسي في العملية كلها ، مما اضطرنا إلى الانحناء أمام المصريين ، والسعي للاستعانة برجلهم ، الذي أذل ناصية أصدقائنا الإسرائيليين .

قال الرئيس في غضب :

- ونحن مضطرون لقبول شرطها ، كما اضطررنا للموافقة على دفع مائة مليار دولار لتلك الحقيرة ، حتى لا تسقط هيبتنا أمام العالم كله .. وهل تعرفين لماذا اضطررنا إلى

هذا وذاك ؟! لأن أجهزة الأمن هنا تمتلك شهرة ، تفوق قدرتها الطبيعية والفعلية ؛ حتى إنها عجزت تمامًا عن كشف هوية تلك المبتزة ، وموقعها ، وطبيعة السلاح الذي تستخدمه ، ووسيلتها في استخدامه .. وما دمنا نفتقر إلى المعلومات ، على هذا النحو المخزي ، فليس أمامنا سوى الاستسلام خفية ، حتى لا نضطر إلى الاستسلام علانية في المستقبل القريب .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول في توتر :

ـ إننا نواجه محترفين ياسيادة الرئيس .

صاح به الرئيس الأمريكي :

ـ كنت أظنكم أيضًا محترفين يا هذا .

شدّ مدير المخابرات قامته في توتر ، وهو يقول :

ـ رجالي يعملون ليل نهار ياسيادة الرئيس ، وبعضهم لم يذق النوم ، منذ أكثر من يومين .

سأله وزير الدفاع في عصبية :

ـ وما الذي توصلوا إليه ، بعد كل هذا ؟!

أجابه مدير المخابرات في سرعة :

ـ أنها عالمية محترفة .

هتف الرئيس الأمريكي ، في لهجة استنكارية :

ـ عالمية ؟! أهذا كل شيء ؟!

حاول مدير المخابرات المركزية الأمريكية أن يتجاوز عبارة الرئيس ، وهو يواصل ، قائلاً :

ـ ربما تكون قد تسللت إلى البلاد ، منتحلة شخصية [لورا كليرمان] بالفعل ، فقد عثرنا على بيانات هذه الأخيرة لدينا ، ولكنها حتمًا ليست هي ؛ فخبراؤنا يؤكدون أنها ترتدي قناعًا مطاطيًا بالغ الرقة ، وشديد الإتقان ، وأنها تتعمد إخفاء شخصيتها الحقيقية لسبب ما ، هو أنها ـ على الأرجح ـ شخصية معروفة ، في عالم الجريمة ، أو عالم الجاسوسية .

سأله وزير الدفاع في اهتمام :

ـ هل يثق خبراؤك بهذا الرأي ؟!

واصل مدير المخابرات ، وكأنه لم يسمع السؤال :

ـ أما قصة شريط الفيديو ، الذي سيكتسح شبكة البث الداخلية ، لو تم إطلاقه أو انتزاعه ، فهي كاذبة وملفقة من أساسها ، ولكنها شديدة البراعة ، إلى حد مدهش ..

قلبت مستشارة الأمن القومي شفتيها، قائلة في امتعاض :

- خادعة، ومضللة، وشديدة البراعة ؟! أي قول مريض هذا ؟!

رمقها مدير المخابرات بنظرة صارمة، وهو يقول :

- ما رأيتموه وتابعتموه، على شاشة العرض، في قاعة اجتماعات الكونجرس، لم يكن شريطًا مسجلاً.

اتسعت عينا الرئيس الأمريكي، وانفرجت شفتاه على نحو عجيب، في حين وثب وزير الدفاع من مقعده، هاتفًا :

- لم يكن ماذا ؟!

أما مستشارة الأمن القومي، فقد انقلبت سحنتها في غضب، وهي تهتف في حدة :

- ما الذي تعنيه بقولك هذا ؟!

أجابها في صرامة :

- ما رأيتموه كان بثًا مباشرًا.

ثم خفض صوته، وهو يضيف :

- من داخل مبنى الكونجرس نفسه.

بدا قوله هذا أشبه بصاعقة، هوت على رءوس الجميع، فاتسعت عيونهم عن آخرها، وحدقوا في وجه مدير المخابرات في ذهول، قبل أن تهتف مستشارة الأمن القومي في حدة :

- هناك جاسوس في المبنى.

أجابها مدير المخابرات في حزم :

- الأمر أكثر من مجرد جاسوس، فأجهزة الفحص الإليكترونية لم تسجل دخولها، ومراقب البث الرقمي لم يدرك وجود بث حي، والحجرة التي تم البث منها، لم تعمل آلات المراقبة فيها..

والتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يتابع :

- باختصار.. كانت هناك سيطرة إليكترونية تامة على المبنى، ولقد أبعدت عن نظرنا عنها، عندما أوهمتنا بأننا نشاهد شريطًا مسجلاً.

اندفعت مستشارة الأمن القومي نحوه بقفزة، وأمسكت ساعده في قوة، حتى كادت أصابعها تغوص في لحمه، وهي تهتف :

- لابد أن نظفر بهذه اللعينة.. هل تفهم ؟!

أزاح الرجل يدها بحركة حادة ، وهو يقول :

- وكيف آلتها البارعة ؟!

صاحت في حنق :

- ابحث عن وسيلة .. أية وسيلة !

قال في غضب :

- وما الذي تطلبينا نفعله ؟!

صاحت :

- أيا كان ماتفعلونه ، فينبغي أن تفعلوه ، وإلا استيقظنا ذات صباح ؛ لنجد أن تلك الطائرة قد سيطرت على مقاليد الأمور .

هزَّ مدير المخابرات رأسه في قوة ، قائلاً :

- مستحيل ! إنها تحصل على ماتريد ؛ لأنها تندفع إلى الهدف فحسب ، بحيث لانجد الوقت الكافى ؛ للسعى خلفها ، ومحاصرتها بمعلوماتنا وتحركاتنا ، ولكننا سنمنحها المال ؛ لنربح بعض الوقت ، الذي سنحتاجه في معرفة هويتها ، وجمع كافة المعلومات عنها ، بحيث ننقض عليها في الوقت المناسب ، قبل أن تستمتع بما ستحصل عليه منا .

سأله الرئيس فجأة :

- السؤال هو : كيف ستحصل عليه منا ؟!

استدار الجميع إليه ، غير مستوعبين طبيعة سؤاله ، فاستطرد في توتر ملحوظ :

- هل تخيل أحدكم حجم الفراغ ، الذي يمكن أن يحتله مائة مليار دولار ؟!

غمغم وزير الدفاع ، وهو يدير عينيه فيما حوله :

- أظنها تحتاج إلى حجرة كهذه .

أجابه مدير المخابرات في سرعة :

- هذا لو طلبتهم نقدًا .

سألته مستشارة الأمن في عصبية :

- ماذا تعنى ؟!

أجابها بنفس السرعة :

- أعنى أنها محترفة ، وتدرك جيدًا أن النقود يمكن تتبعها بأية وسيلة ، لذا فلن تطلب الحصول على المبلغ أبدًا ، في شكل أوراق نقدية .

سأله الوزير في اهتمام :

- كيف ستحصل عليه إذن ؟!

أشار مدير المخابرات بسبابته ، مجيبًا :

- من الناحية الاحترافية البحتة ، لا يوجد أفضل من الماس .

اعتدل الرئيس في مقعده ، متسائلاً في اهتمام بالغ :

- حقًا ؟!

أجابه مدير المخابرات في حزم :

- الماس النقي صغير الحجم ، باهظ الثمن ، وحفنة واحدة منه ، قد تساوي ملايين الدولارات ، أي أن حقيبة من الماس شديد النقاوة ، قد تساوي المبلغ كله .

بدت مستشارة الأمن القومي شديدة الانفعال ، وهي تقول :

- حقيبة واحدة ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. حقيبة بسيطة ، لا تلفت الانتباه إليها أبدًا ، في مكان مزدحم برجال الأعمال ، مثل (وول ستريت) .

صمت الجميع تمامًا ، بعد عبارته الأخيرة ، وتبادلوا

نظرة طويلة ، قبل أن تقول مستشارة الأمن القومي في صرامة :

- لو أن هذا هو الحل الاحترافي الوحيد ، فلِمَ لا نستعد لمواجهته بالفعل ؟!

سألها مدير المخابرات في اهتمام :

- وكيف هذا ؟!

أجابت في توتر :

- بأن نعدّ الحقيبة على الأقل ، ونزودها بجهاز تعقّب إلكتروني ، و....

قاطعها مدير المخابرات ، قائلاً :

- هراء .

استدارت إليه بحركة حادة غاضبة ، ولكنه تجاهل انفعالها تمامًا ، وهو يقول :

- استخدام حقيبة مزودة بجهاز تتبع ، مع امرأة نجحت في السيطرة على النظام الأمني الإلكتروني ، بمثل الدقة والحذاقة في الكونجرس ، أشبه بمحاولة الانتحار بمسدس صدئ .. كثير من الألم ، وقليل من التأثير .

قالت المستشارة في حنق :

- وما الذي تقترحه أنت إذن ، يا عبقري العباقرة ؟!

أشار مدير المخابرات بسبابته ، وهو يجيب في سرعة :

- القمر الصناعي .

تألقت عينا مستشارة الأمن ، وهي تهتف :

- آه .. بالطبع .. كيف نسينا هذا ؟! إننا نستطيع تتبع خط سير حقيبة الماس ، بوساطة أقمارنا الصناعية للتجسس .. إنها قادرة على تحديد لون الملابس الداخلية لأي شخص ، في أي مكان في العالم ، و...(*)

قاطعها مدير المخابرات ، في سخرية متعمدة :

- وهل صدقت هذه الدعاية ، يا مستشارة الأمن القومي البارعة ؟! المفترض منها أن نرهب خصومنا ، لا أن نصدقها نحن .

عاد وجه مستشارة الأمن يحتقن ، وهي تهتف :

- أيها الـ ...

(*) إبان حرب (العراق) الثانية ، أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية ، أن أقمارها الصناعية للتجسس ، قادرة على معرفة لون الملابس الداخلية للرئيس العراقي ، ولكن أثناء الحرب فشلت حتى في العثور على الرئيس نفسه .

قاطعها الرئيس الأمريكي ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته ، ويهب من مقعده بحركة حادة :

- كفى .

صمت الجميع ، والتفتوا إليه في توتر ، فتابع في غضب :

- أشعر وكأنني في حجرة ، تضم بعض أطفال مرحلة المشاغبة ، وليس كبار المسئولين في الدولة !! إنكم تتشاجرون وتتشاحنون ، حول تفاهات سخيفة ، في الوقت الذي تواجه فيه البلاد أخطر كارثة ، في تاريخها كله .

احتقن وجه وزير الدفاع ، وعقدت مستشارة الأمن حاجبيها في توتر ، في حين ارتبك مدير المخابرات المركزية ، وهو يقول :

- معذرة يا سيادة الرئيس .. لم نكن نتشاحن في الواقع ، ولكنني كنت أشرح اقتراحنا خاصاً بالأقمار الصناعية ، و...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، قبل أن يحتقن وجهه ، ويهتف بكل انفعال الدنيا :

- سيادة الرئيس .. لقد عرفت ماهية السلاح ، الذي تستخدمه

لصملتنا ، لتوجيه ضربتها المستقلة .. يا إلهي ! لقد عرفته بالفعل .

وكانت مفاجأة حقيقية للجميع

مفاجأة قوية ، وعنيفة ..

للغاية .

* * *

٦ ـ الرحلة العجيبة ..

« ما أروع الحياة هنا ! »

هتف (قدري) بالعبارة ، في استمتاع كبير ، وهو يسترخي على مقعد شاطئ وثير ، أمام مياه القناة ، ويلتهم شطيرة سامانة ، وإلى جواره طبق يمتلئ بالفطائر المماثلة ، وزجاجة مياه غازية ضخمة ، من الطراز المخصص للاستخدام العائلي ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، ارتفع معه كرشه الضخم ، فربت عليه في رفق ، مستطردًا في حرارة :

ـ لست أدري لماذا لم تدعنا إلى هنا من قبل يا (أدهم) ، ما دمت تمتلك المكان منذ ما يقرب من عشر سنوات ، كما تقول ؟!

كان يتوقع ردًا على تساؤله ، إلا أن (أدهم) لم ينبس ببنت شفة ، وهو يجلس على مقعد مجاور له ، متطلعًا إلى مياه القناة ، في شرود عجيب ، فاعتدل يسأله مرة أخرى :

ـ (أدهم) .. هل ..

أمسكت (منى) يده فجأة ، لتمنعه من الاستطراد ، وهي تقول في خفوت ، حمل قدرًا ملحوظًا من الحزم :

ـ اصمت يا (قدري) .

التفتت إليها (قدري) في دهشة، فتابعت بحزم أكبر:

- اتركه لحاله الآن.

لاذ الاثنان بالصمت التام، وهما يراقبان (أدهم)، الذي بدا وكأنه قد انفصل تمامًا عما حوله، وغرق بكيانه كله في لجة من الأفكار، وعيناه تتطلعان إلى مياه القناة، في صمت شارد عميق..

ولقد طال صمته..

وطال..

وطال..

ولكن أحدهما لم ينبس ببنت شفة..

كلاهما راح يراقبه، في اهتمام ممزوج بالقلق والتعاطف، وكلاهما لم يرياه أبدًا على هذا النحو..

(منى) بالذات، كان قلبها ينفطر من أجله..

كان يتعذّب..

ويتألم..

ويبكي..

وعبر جسدها كله، انطلقت دموع قلبها تسري في عروقها، وتلتهب معها كل خلية من خلاياها، حتى تمنت لو أنها تستطيع أن تنتزع كل أحزانه وآلامه إليها؛ لتراه مبتسمًا حيويًا، كما عهدته دائمًا..

منذ استضافهما في فيلته الصغيرة، وعلى الرغم من اهتمامه البالغ، بتوفير كل سبل المتعة والراحة لهما، ومن أحاديثهما الطويلة، التي كانت تستمر في بعض الأحيان، حتى مطلع الفجر، أو حتى يرتفع شخير (قدري)؛ ليطغى على كل ما حوله، كانت تشعر أنها لا تجلس مع (أدهم صبري) الذي تعرفه..

ليس مع ذلك الرجل، الذي تتفجر الحماسة دومًا من كل خلية في جسده، وتتألق الحيوية طوال الوقت، وهي تطل من عينيه..

ليس ذلك البطل، الذي ظلت مبهورة به، طوال فترة عملها كلها معه..

إنه الآن شخص آخر..

شخص تبتسم شفتاه، على الرغم من محيط الحزن والأسى، الذي يفيض من عينيه..

شخص يحمل هموم الدنيا كلها في صدره ..

في عقله ..

في قلبه ..

وفي كيانه كله ..

ومن الواضح أنه يخفي في أعماقه سرًا كبيرًا ..

سرًا يتعلق بمعشوقته الأولى ..

(مصر) ..

سرًا يرفض الإفصاح عنه ، حتى لها أو لـ (قدري) ..

ويا له من سر !

رباه ! كم تحبه !

كم تتعذب وتتمزق من أجله !

كم تتمنى لو تمنحه سعادة الدنيا كلها ، حتى تمحو من قلبه كل ما يلوح به من عذابات وأحزان ..

وبكل حب وحنان وأسى ولوعة الدنيا ، تطلعت إليه في صمت ، وقلبها يخفق من أجله ..

ويخفق ..

ويخفق ..

و ....

« هل تعلمون كم مرة عبرت فيها مياه هذه القناة ؟! »

نطقها (أدهم) فجأة ، وهو يواصل التطلع إلى مياه القناة ، فانتفض جسد (منى) ، وكأنه قد انتزعها من سبات عميق ، في حين تساءل (قدري) ، في اهتمام حقيقي :

ـ كم ؟!

هز (أدهم) رأسه في بطء ، واستدار إليهما بابتسامة هادئة ، لم تنجح في محو الحزن المطل من عينيه ، وهو يقول :

ـ أنا نفسي أجهل العدد الصحيح ، فقد كنت عابرًا أساسيًا ، في كل العمليات التي قامت بها وحدات الصاعقة ، قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م .. كنا نعبر القناة ، تحت جنح الظلام ، ونوجه إلى العدو ضربات عنيفة قاصمة ، فندمر وحداته ، وننسف مخازن ذخيرته ، ونقطع خطوط مواصلاته ، ثم نعود إلى وحداتنا ، قبل مطلع الفجر .

حملت كلماته لمحة مدهشة ، توحي بأنه يستعيد ذكرى سعيدة ، على الرغم من الحزن ، الذي لم يفارق عينيه أبدًا ، فتمتمت (منى) :

ـ لأنها كانت أفضل أيامك .

تطلّع إلى عينيها بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يهز رأسه فى بطء ، مجيبًا بصوت دافئ حنون :

- كلا .

ثم مال نحوها ، والتقط أصابعها الرقيقة فى راحته ، وهو يضيف ، بصوت أكثر دفئًا وحنانًا :

- أفضل أيامى على الإطلاق ، تلك التى عملنا فيها معًا .

ارتفع حاجبا (قدرى) فى تأثر ، وبدا له كأنه سينفجر باكيًا ، فأشاح بوجهه ، فى محاولة لكتمان دموعه ، التى تألقت فى استماتة ، للانهمار من عينيه ، فى حين سرت قشعريرة دافئة عجيبة ، فى جسد (منى) كله ، وهى تهتف بصوت ارتجفت نبراته :

- (أدهم) .

مال نحوها أكثر ، وهو يقول :

- (منى) .. لقد أضعنا الكثير من الوقت ، والتهمتنا المتاعب ، التى لم تتوقف عن وضع نفسها فى طريقنا ، منذ زمن طويل ، حتى نسينا أنفسنا .

سرت ارتجافة خافتة فى جسدها ، وخفق قلبها بين

ضلوعها فى قوة ، وارتفعت الدماء إلى وجنتيها ، وحاولت أن تقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن الكلمات تعثرت فى حلقها ، ورفضت الخروج إلى شفتيها ، وهى تتطلع إليه فى لهفة ، متسائلة عما إذا كان سينطقها أخيرًا ..

أما هو ، فقد صمت لحظة ، امتزج خلالها ذلك الحزن المطل من عينيه ، بفيض من الحب والحنان ، قبل أن يقول ، بصوت حمل دفء الدنيا كله :

- (منى) .. هل ..

وفجأة ، وقبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين هاتفه المحمول ..

ارتفع لينتزع الاثنين بغتة ، من ذلك البحر من المشاعر ، حتى إن (منى) قد انتفضت فى عنف ، وهى تطلق شهقة مرتفعة ، فى حين سقطت الشطيرة من يد (قدرى) ، وهو يهتف :

- رباه !

الوحيد الذي تصرف بتماسك متوقَّع . كان (أدهم) نفسه ، الذي انتقل في سرعة ، والتقط هاتفه المحمول بحركة تلقائية ، وضغط زر الاتصال فيه ، دون أن يلقي نظرة على شاشته ، وقال في حزم :

- (ن - ١) ياسيدي .

كان من الواضح أن الرنين الخاص ، الذي انطلق من هاتفه ، والذي يختلف عن رنينه المعتاد ، كان ينبئه بأن محدثه هو مدير المخابرات العامة نفسه ، لذا فقد هب من مقعده ، وابتعد عن رفيقيه بضع لحظات ، وهو يستمع إليه في اهتمام بالغ ..

وفي دهشة ، تساءل (قدري) :

- لماذا استخدم (أدهم) كوده السري ؟!

غمغمت (منى) ، وقلبها يخفق في قوة :

- إنه اتصال من الإدارة .

اعتدل (قدري) ، هاتفًا في انفعال :

- حقًا ؟!

وكعادته ، فلما بلغ انفعاله ذروته ، التقط شطيرة جديدة .

وقضم منها قطعة كبيرة ، لاكها بين فكيه ، في سرعة كبيرة ، وهو يراقب (أدهم) ، الذي استغرق بمشاعره كلها ، في الاستماع إلى مدير المخابرات ، دون أن يقاطعه بحرف واحد ، وهو يبتعد عن رفيقيه بخطوات واثقة ملموسة ، حتى بلغ سور الفيلا ، قبل أن يقول في حزم :

- كلي فداء لـ (مصر) ياسيدي .. أنا مستعد تمامًا لتنفيذ المهمة ، مهما كان الثمن .

ثم عاد إلى صمته وانتباهه ، لنصف دقيقة أخرى ، قبل أن يقول :

- أنا مستعد تمامًا ... سأعد حقيبتي في سرعة .. وأنتظرهم .

أنهى الاتصال ، وتحرك عائدًا إلى رفيقيه ، فتساءل (قدري) في لهفة وانفعال :

- هل تعتقدين ..

قاطعته في انفعال :

- أي سؤال هذا ؟! ألم تر كيف هو الآن ؟!

كانت صادقة في تساؤلها تمامًا ، فـ (أدهم) ، الذي اتخذ طريقه نحوهما ، في خطوات قوية حيوية ، كان يختلف

تمامًا عن ذلك الذي كان يجلس ، منذ دقائق قليلة ، محدقًا إلى مياه القناة في شرود ..

وعندما اقترب منهما ، شعرت (منى) بارتجافة جديدة ، تنطلق عبر كيانها كله ، وهي تتطلع إلى عينيه ، اللتين زايلهما ذلك الحزن العميق القلق ، لتحل محله نظرة مفعمة بالحيوية والنشاط ، اللذين انتقلا إلى صوته ، وهو يقول :

- يمكنكما البقاء هنا حسبما تشاءان يا رفاق ، فأنا مضطر للعودة إلى (القاهرة) فورًا .

قال (قدري) في دهشة :

- إلى (القاهرة) ؟! هل طلبوا عودتك ، في العاشرة صباحًا ؟!

أما (منى) فانتفضت ، قائلة في حزم :

- فليكن .. سأرافقك إلى هناك ، و ..

استوقفها بإشارة من يده ، وهو يقول :

- معذرة يا عزيزتي ، ولكن الهليكوبتر لن تتسع إلا لشخص واحد .

ارتفع حاجبا (قدري) في دهشة بالغة ، في حين هتفت (منى) :

- هليكوبتر ؟! أهي مهمة عاجلة إلى هذا الحد ؟!

امتزج جوابه بهدير مراوح الهليكوبتر ، التي ظهرت في سماء المكان ، وهو يقول ، بلهجة حملت ابتسامة واضحة :

- هي كذلك بالفعل .

وخفق قلب (منى) مرة أخرى بقوة ..

بمنتهى القوة ..

* * *

بدا (آلان رافيل) ، مندوب المخابرات المركزية الأمريكية ، شديد التوتر والانفعال ، وهو يصافح (أدهم) ، قائلاً :

- مرحبًا يا سيد (أدهم) .. يسعدني وصولك إلى هنا بهذه السرعة ، فكل دقيقة لها ثمنها الآن ، والرؤساء في الولايات المتحدة ، يطلبون وصولك إلى هناك ، بأقصى سرعة ممكنة .

قال (أدهم) في هدوء :

- بالنسبة للسفر إلى هناك ، لن تنخفض أقصى سرعة هذه عن عشر ساعات على الأقل .

هزّ الأمريكي رأسه نفيًا ، وهو يقول في حزم :

- إنهم يريدونك هناك ، خلال ست ساعات فحسب .

ارتفع حاجبا (أدهم) في دهشة ، وهو يقول :

- ست ساعات !! ولكن .. ما من طائرة يمكنها أن تقطع هذه المسافة ، خلال ..

قاطعه الأمريكي بمنتهى الحزم :

- إننا نتحدث عن مقاتلة حربية ، من أحدث طراز متاح .

انعقد حاجبا (أدهم) في شدة ، وهو يقول :

- مقاتلة حربية ؟!

أجابه (راندول) في سرعة :

- نعم .. مقاتلة حربية جديدة ، يمكنها أن تؤمن السرعة المناسبة ، التي تساعدك على الوصول إلى (واشنطن) ، خلال ست ساعات .

قال (أدهم) ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره :

- أعرف تمامًا قدرات مقاتلتكم الجديدة ، وسرعتها الفائقة ، التي تبلغ ضعف سرعات الصوت المعروفة .. ولكن معلوماتي تقول : إنها لا تصلح إلا لراكب واحد ، وهو قائدها ، ثم إن خزان وقودها لا يسمح لها بقطع هذه المسافة الهائلة ، دون التزود بالوقود ثلاث مرات على الأقل .

انعقد حاجبا (راندول) ، وهو يسأله في توتر :

- ما الذي تعرفه أيضًا ، عن مقاتلتنا الجديدة الـ ... السرية ؟!

ضغط حروف الكلمة الأخيرة ، في غضب واضح ، فهز (أدهم) كتفيه في هدوء ، مجيبًا :

- تصميمات مقاتلتكم الجديدة ، التي تتصورونها سرية ، كانت ترقد في أعماق خزانة (جون روتشيلد) ، مستشار الأمن القومي الإسرائيلي ، عندما اقتحمناها نحن ، لنحصل منها على بعض الأوراق المهمة ، التي أرسلناها إليكم ، فتجاهلتم محتواها تمامًا .

سأله (راندول) في غضب :

- أتعني أن الإسرائيليين هم الذين ..

لم يتم تساؤله ، فقال (أدهم) في سخرية :

- نعم .. هم الذين ... والذين أيضًا .

ازداد انعقاد حاجبي (راندول) ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة ، فارتسمت على شفتي (أدهم) ابتسامة ساخرة ، وهو يرفع أحد حاجبيه ، ثم يخفضه ، على نحو عابث مستفز ، جعل الأمريكي يقول في حدة :

- قليلون يا مستر (أدهم) .. لا وقت لدينا للدخول في مثل هذه المناقشات السخيفة . فلكل دقيقة ثمنها ، كما سبق أن أخبرتك .

ثم تنحنح ، وشد قامته ، ليضيف في حزم :

- أنت ستقود مقاتلتنا .

كان متوقعًا أن تتسع عينا (أدهم) في دهشة وانبهار ، إلا أن هذا الأخير ظل هادئًا قويًّا ، وهو يتساءل :

- وماذا عن مشكلة الوقود ؟!

فرد الرجل أمامه خريطة ملاحية ، وأشار إليها ، مجيبًا :

- في هذه البقعة ، وفي تلك أيضًا ، ستكون هناك حاملتا طائرات في انتظارك ، ولديهما كل الأوامر اللازمة لتزويدك بالوقود ، فور هبوطك على سطح أيٍّ منهما .

قال (أدهم) بنفس الهدوء والقوة :

- الهبوط على سطح حاملة طائرات ، في قلب المحيط ، ليس بالأمر الهين ، وأنا لم أقم به من قبل قط .

أشار (راتوبك) بسبابته ، قائلاً في توتر :

- ولكن ملفك يؤكد أنك طيار بارع ، لا يشق له غبار ،

كما تقولون في لغتكم ، ويمكنني القول في ثقة شديدة ، بأنه باستطاعتك القيام بهذا .

ابتسم (أدهم) ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

- قلت : إنه ليس بالأمر الهين ، ولم أقل : إنه مستحيل !

قال (راتوبك) في سرعة :

- وحتى لو كان كذلك .

وتوقف لحظة ، عض خلالها شفته السفلى في مقت ، قبل أن يتابع :

- فملفك يقول : إنك قادر على قهر المستحيل .

هز (أدهم) كتفيه في لامبالاة ، وهو يتساءل :

- وماذا عن المرة الثالثة ؟!

تطلع إليه (راتوبك) بنظرة غريبة لبضع لحظات ، وكأنه لا يفهم السؤال ، ثم لم يلبث أن هز رأسه ، هاتفًا :

- آه .. تقصد احتياجك إلى التزود بالوقود لثالث مرة .

قال (أدهم) ، في لهجة حملت لمحة ساخرة :

- بالضبط .

ابتلع الأمريكي غضبه ، وهو يجيب :

ـ ستكون قد اقتربت من سواحل الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما . لذا سيتم تزويدك بالوقود في أثناء الطيران ، بوساطة طائرة وقود ضخمة ، ستحلق فوقك ، وتمد أنبوبًا خاصًا ، إلى فتحة الوقود في مقاتلتك ، وكل ما سيكون عليك فعله عندئذ ، هو أن تخفض من سرعة المقاتلة ، حتى تتناسب مع سرعة طائرة الوقود ، خلال فترة التزود فحسب ، ثم ..

قاطعه (أدهم) هذه المرة في حزم :

ـ أعرف ما ينبغي فعله حينذاك .

التقط الأمريكي نفسًا عميقًا ، وهو يتطلع إليه مباشرة ، قبل أن يمد يده لمصافحته ، قائلاً :

ـ أعلم جيدًا أنك ستؤدي هذه المهمة ، فقط لأنك تلقيت الأوامر بهذا من رؤسائك ، أو لأنكم ستحصلون على تعاون كبير منا ، مقابل تعاونكم معنا ، ولكنه لو تعلق الأمر بنا وحدنا ، لما حركت سبابتك من أجلنا .

قال (أدهم) في برود :

ـ هذا صحيح .

تجاهل الأمريكي قوله تمامًا ، وتابع :

ـ واعلم أيضًا أن المهمة ، على الرغم مما تبدو عليه من بساطة ، قد تنطوي على قدر هائل من الخطر ، ولكنني أريد أن أقول لك : إنه لو تمت المهمة بنجاح ، حاول ألا تلتقي مرة ثانية أبدًا ، لأنه لو حدث هذا ، سأبذل قصارى جهدي للقضاء عليك ، مهما كلفني هذا ؛ لأنني لا أمقت شخصًا في الدنيا كما أمقتك .

صافحه (أدهم) في هدوء مستفز ، وهو يقول بابتسامة ساخرة :

ـ حاول أنت ألا تلتقي عندئذ ، فستطير ضحكاتي الساخرة حتمًا ، عندما أراك تفشل في مسعاك ، وتبقى في مرارة عاقلاً .

قال (راتلويل) ، بكل مقت الدنيا :

ـ سنرى يا مستر (أدهم) .. سنرى .

رفع (أدهم) حاجبيه وخفضهما مرة أخرى ، وهو يقول بنفس الابتسامة الساخرة :

ـ نعم يا مستر (راتلويل) .. سنرى .

وكانت هذه هي البداية ..

بداية المأزق ..

أكبر مأزق سيواجهه (أدهم) في حياته ..

على الإطلاق ..

* * *

نفثت الزعيمة الغاضبة دخان سيجارتها الحمراء ، في بطء واستمتاع ، وهي تراجع المعلومات ، التي تراصت على شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بها ، قبل أن تسترخي في مقعدها ، قائلة :

ـ عظيم .. كل شيء يسير على ما يرام .

قال قائد قواتها في قلق :

ـ ولكن المعلومات تقول : إنهم يراجعون ملفات الأقمار الصناعية ، مما يعني أنهم قد كوّنوا فكرة معقولة ، عن طبيعة السلاح الذي تستخدمه .

هزّت كتفيها في لامبالاة ، قائلة :

ـ كانوا سيتوصلون إليه ، إن عاجلاً أو آجلاً .

سألها في دهشة :

ـ ألا يقلقك هذا ؟!

ابتسمت ابتسامة غامضة ، وهي تقول :

ـ كل شيء ما زال تحت السيطرة .

سألها ، في شيء من التوتر :

ـ كل شيء ؟!

أجابته بمنتهى الحزم :

ـ نعم .. كل شيء .

مطّ شفتيه ، وهو يراجع المعلومات على شاشة الكمبيوتر مرة أخرى ، قبل أن يغمغم :

ـ ربما .

أدارت إليه عينين مستغرقتين ، ونفثت دخان سيجارتها في وجهه ، قبل أن تقول :

ـ قل لي يا رجل : هل يتضمّن عقلك أن تفكر ؟!

حدّق في وجهها ، قائلاً في حيرة :

- ماذا تعنين أيتها الزعيمة ؟!

استدارت إليه بجسدها الفاتن كله ، وهي تقول ، في صرامة واضحة :

- أعني أنني عندما استأجرت خدماتك ، أخبرتك بمنتهى الوضوح ، أنك ستحصل على هذه المكافأة الضخمة ، مقابل خدماتك وخبراتك العسكرية والقتالية ، ولم أشر لحظة واحدة ، إلى أنني أحتاج إلى ذكائك أو عبقريتك .

تطلّع إليها في تساؤل حائر ، فاكتسب صوتها قسوة وصرامة ، وهي تقول في شراسة :

- بالاختصار ، أريد منك أن تشغل نفسك قتاليًا ، وتترك كل ما يتعلّق بالتفكير والتدبير لي وحدي .. هل تفهم ؟!

مضت لحظة من الصمت ، تطلّع كل منهما خلالها إلى عيني الآخر ، قبل أن يقول هو متراجعًا :

- كنت أبدي رأيي فحسب .

قالت بنفس الصرامة الشرسة :

- في المرة القادمة ، احتفظ برأيك هذا لنفسك .

قال ، في شيء من التوتر :

- ولكننا في زورق واحد .

صاحت في غضب :

- وأنا قبطان هذا الزورق .

تزايد توتره ، وهو يقول :

- في هذه الحالة ، أظنني أحتل منصب الضابط الأول ، ومن حق من في منصبي أن يبلغ القبطان بكل ما يتراءى له ، وبكل ما يقلق عقله .

قالت بكل الصرامة :

- على أن ينفذ القبطان القرارات وحده في النهاية .

انخفض صوته ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

قوله الأخير هذا جعلها تتراجع عن غضبتها الشرسة ، وتستعيد ابتسامتها الساحرة ، قائلة :

- عظيم .. هذا يضع النقاط على الحروف في وضوح .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تشير إلى شاشة الكمبيوتر ، متابعة :

- هل لاحظت أنهم قد استعانوا بأكثر رجالهم خبرة وحنكة ، لفحص تلك الحجرة ، التي قمنا بالبث منها ، عبر شبكة الاتصالات الداخلية ، في مبنى الكونجرس !؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- الفريق الذي استعانوا به ، من أبرع رجال الطب الشرعي والمعامل الجنائية لديهم ، وهو المسئول عن حل معظم الجرائم شديدة التعقيد ، في الولايات المتحدة كلها .

وصمت لحظة ، ثم تابع في توتر ، لم يستطع كتمه :

- إنهم معتادون على فحص مسرح الجريمة ، بمنتهى الدقة والعناية ، وكل شيء يعثرون عليه فيها ، يمكن أن

يقودهم إلى نتيجة ما .. بصمة إصبع .. شعرة رأس ، أو حتى أثر حذاء .

وصمت لحظة ، ثم واصل ، في شيء من العصبية :

- إنهم بارعون بحق .. بارعون إلى أقصى حد ممكن .

أدهشه بشدة أن ارتسمت على شفتيها ابتسامة كبيرة ، وهي تقول في استمتاع عجيب :

- عظيم .. عظيم .

قالتها ، ثم انطلقت من حلقها ضحكة عالية عابثة ، قبل أن تلقي ما تبقى من سيجارتها الحمراء بعيدًا ، وتتابع في جذل وحشي عجيب :

- سيروق لي كثيرًا ما سيعثرون عليه هناك .. وسيروق لي أكثر ما سيتوصلون إليه .

وعادت تطلق ضحكة عابثة طويلة ممطوطة ، ثم تلتقط نفسًا عميقًا ، وتقول في شيء من المرح :

- كل شيء يسير على ما يرام بالفعل .

مع آخر كلماتها، انطلق من الكمبيوتر أزيز خافت، وظهر في ركن شاشته رسم لمظروف مغلق، يعلن وصول رسالة عاجلة، فمالت الزعيمة نحو لوحة الأزرار، وهي تقول في اهتمام:

- معلومة عاجلة.

وضغطت أحد أزرار اللوحة، فانفتح رمز المظروف، وظهرت الرسالة كاملة على الشاشة..

كانت رسالة قصيرة، تحوي جملة واحدة فحسب..

وبسرعة، التهمت عينا الزعيمة كلمات الرسالة القصيرة، ثم تألقت عيناها في شدة، وهي تقول:

- آه.. لقد فعلوها.

سألها قائد قواتها في لهفة:

- هل استعانوا حقاً بذلك المصري ؟!

أشعلت سيجارة جديدة، ونفثت دخانها في عمق، وهي تقول بلهجة غامضة:

- جواب هذا السؤال لم يشغلني لحظة واحدة.. كنت واثقة من أنهم سيفعلون ما طلبته حتماً.

وصمتت لحظة، ثم أضافت في شيء من الحزم:

- السؤال الذي كان يقلقني: هل سيوافق هو على مساعدتهم ؟!

سألها قائد قواتها في اهتمام حذر:

- ولماذا الإصرار على هذا المصري بالتحديد ؟!

نفثت دخان سيجارتها بمنتهى البطء، قبل أن تجيب، في استمتاع عجيب:

- لأن وجوده سيجعل اللعبة أكثر إمتاعاً.. أكثر بكثير.

قالتها، وعادت تطلق تلك الضحكة الطويلة العابثة..

وفي هذه المرة، وربما لأول مرة منذ عرفها، شعر قائد قواتها بالخوف منها يسري في عروقه..

فعلى الرغم من جمالها وفتنتها، وضحكتها العذبة الطويلة، بدت له، في تلك اللحظة، أشبه بوحش..

وحش القمر.

النهاية.

* * *

٧- السر..

تلقى حلجيا مستشارة الأمن القومي الأمريكية، وانقلبت سحنتها، على نحو زاد ملامحها قبحًا، وهي تتبع شخصيًا، عملية فحص تلك الحجرة، التي تم بث الفصل الزاعمة منها..

كان فريق خبراء الأدلة الجنائية يقوم بفحص المكان، في دقة متناهية، بحيث يستحيل أن تفوتهم لمحة واحدة..

كانوا يجمعون كل ذرة يجدونها، ويرفعون البصمات من كل ركن، وكل جدار، ويستخدمون أحدث معداتهم، لكشف كل ما يمكن كشفه..

وبعد ثلاث ساعات كاملة من العمل، تقدم قائد الفريق من مستشارة الأمن، وقال وهو يمسح العرق الغزير، الذي غمر وجهه، على الرغم من برودة الجو:

- أما زلت تصرين على البقاء يا سيدتي؟! الرجال يقومون بعملهم على أكمل وجه، ولكن وجودك معهم يثير توترهم، إلى حد ما.

قالت في خشونة:

- دعهم يتحكمون هنا

مط شفتيه ، قائلاً :

- ولكن ما فائدة وجودك هنا ؟!

بدت أشبه بقطة مفترسة ، وهي تسأله :

- هل عثرتم على بصماتها ؟!

أشار الرجل بسبابته ، قائلاً :

- المكان يحوي العديد من البصمات ، و..

قاطعته في صرامة :

- تلك المخطوفة لم تكن ترتدي قفازات ، وستجدون بصماتها حتمًا ، في مكان ما هنا ، لو قمتم بعملكم كما ينبغي .

بدا الضيق واضحًا في ملامحه وصوته ، وهو يقول :

- إننا نقوم بعملنا أفضل مما ينبغي يا سيدتي ، ولكن البصمات لايمكن فحصها في مسرح الجريمة .. لابد أن نحملها إلى معاملنا ، حيث شبكة الكمبيوتر و...

قاطعته بنفس الصرامة :

- ما الذي تحتاجون إليه بالضبط ؟!

تطلع إليها ، في دهشة متسائلة ، فتابعت بصرامة أكثر :

- ما الذي تحتاجون إليه ، لأحصل على النتائج فورًا ؟!

بدا عليه الغضب ، وهو يقول في حدة :

- ما نحتاج إليه بالفعل ، هو أن تتركينا وشأننا يا سيدتي .. دعينا نعمل كما ينبغي ، واذهبي أنت لتمارسي عملك كما ينبغي .

احتقن وجهها الأسمر ، وهي تهتف :

- كيف تجرؤ أيها الـ ..

قاطعها في صرامة شديدة :

- لست أجرؤ فحسب ، ولكنني أشجع أيضًا .

ثم شد قامته ، مستطردًا :

- وبأسلوب عملي .

قالها ، والتفت إلى فريق الفحص ، هاتفًا بلهجة آمرة صارمة :

- توقفوا .

لم يكد ينطقها ، حتى توقف الرجال دفعة واحدة ، ونهضوا واقفين ، كجنود في حالة استعداد قتالي ، مما ضاعف من احتقان وجهها ، وهي تهتف ، بكل غضب الدنيا :

- هل تدرك ما تفعلونه ؟!

أجابها الرجل في صرامة :

- نعم يا سيدتي .. ندرك جيدًا كنا نرغب في أداء عملنا كما ينبغي ، وأننا لن نسمح لأي مخترق ، أيًا كان منصبه ، أن يفسد عملنا ، أو يدس أنفه فيه ، ولو لحظة واحدة .

هتفت :

- أتعلم أن باستطاعتي أن ..

قاطعها بنفس الصرامة ، وهو يواصل حديثه :

- ولو أننا عجزنا عن القيام بعملنا لهذا السبب ، فنحن نعلن فشلنا ، ونتقدم باستقالتنا الجماعية .. فورًا .

حدّقت في وجهه بضع لحظات ، وكأنها لا تصدق ما تسمعه منه ، وتصارعت في أعماقها رغبتها في الحصول على النتائج ، مع غضبها من تحديهم لها ، إلا أنها لم تلبث أن قالت ، وهي تندفع خارج المكان في حدة :

- واصلوا عملكم .

كان الغضب يتفجر ، في كل خلية من خلاياها ، وهي تسير في خطوات عصبية سريعة ، عبر ممرات الكونجرس ، مغمغمة :

- أيتها الطائرة .. أنت السبب في كل هذا .. أقسم أن أسحقك سحقًا ، عندما أظفر بك .

مع آخر حروف كلماتها ، ارتفع رنين هاتفها المحمول بغتة ، فالتقطته في حركة عصبية ، قائلة :

- أتعشم أن يحمل هذا الاتصال خبرًا سارًا .

ضغطت زر الاتصال ، وهي تقول في حدة :

- ماذا هناك ؟!

أتاها صوت مدير المطارات المركزية ، وهو يقول في توتر :

- لقد كنا على حق .

انعقد حاجباها في شدة ، وهي تقول في غضب :

- رباه ! هل استخدموا برنامجنا ضدنا ؟!

أجابها مدير المطارات :

- نعم يا مستشارة الأمن القومي .. تلك الطائرة سيطرت بوسيلة ما ، على أحد أقمارنا الصناعية ، التي كانت ضمن برنامج (حرب النجوم) (*) ، الذي لم يتم استكماله ؛ لأسباب اقتصادية وسياسية .. لقد سيطرت بالتحديد على القمر

(*) برنامج حرب النجوم : هو برنامج عسكري فضائي ، تم وضع أسسه ، أثناء فترة حكم الرئيس (ريجان) ، وهو يعتمد على وجود شبكة من الأقمار الصناعية ، تحيط بكوكب الأرض ، وتحمل مدافع الليزر القوية ، القادرة على سحق أي هدف ، في أية بقعة من الأرض ، ولقد تم إيقاف البرنامج ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، باعتبار أنه لم يعد من المنطقي إنفاق ملايين الدولارات عليه ، بعد أن أصبحت (أمريكا) زعيمة العالم الوحيدة

الوجود ، الذى يحوى مدفع ليزر قادرًا على العمل ، وهى تستخدم أشعة الليزر غير المرئية ؛ لنسف أهدافنا الأرضية ، وإزالتها تمامًا من الوجود .

مضت لحظات من الصمت ، عجزت مستشارة الأمن خلالها ، عن النطق بحرف واحد ، من شدة الذهول والاستنكار ، فتابع مدير المخابرات فى توتر بالغ :

ـ علماؤنا يحاولون استعادة السيطرة على القمر الصناعى ، ولكنهم يقولون إن الأمر عسير للغاية ؛ لأن تلك المطيرة قد أبدلت شفرات الاتصال تمامًا .

قالت مستشارة الأمن ، وهى تبذل جهدًا خرافيًا ؛ للسيطرة على انفعالها ، وتخفى الذهول والغضب عن نظرتها وصوتها :

ـ وكم من الوقت نحتاج لاستعادة السيطرة عليه ؟!

أجابها فى مرارة :

ـ ثلاثة أيام ، على أقل تقدير ، باستخدام أحدث الأجهزة والمعدات ، وأفضل خبراء الشفرة والاتصالات .

تضاعف غضبها ، وهى تغمغم :

ـ يا للمطيرة !

كانت تشتعل غضبًا وثورة ، فى أعمق أعماقها ، ولكنها قاومت كل هذا فى استماتة ، لتضيف :

ـ ألا يمكن تعقُّب الوسيلة ، التى تسيطر بها على قمرنا ، وتوجه بها ضرباتها ؟! هناك محطة سيطرة أرضية حتمًا ، فى مكان ما هنا .

أجابها مدير المخابرات :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا لكشف هذا .

هتفت فى حدة :

ـ لقد سئمت عبارة (قصارى جهدنا) هذه ، فلا يستخدمها دومًا سوى المقصرين .

قال مدير المخابرات فى غضب :

ـ اسمعى أيتها المستشارة .. أعلم أنك غاضبة مما يحدث ، وكلنا نعانى حالة الإحباط نفسها ، ولكن هذا لا يمنحك الحق فى أن تتعاملى مع الآخرين ، بهذا الأسلوب الفظ الوقح ، وفى المرة القادمة ، لو تعاملت معى بهذا الصلف ، لو أثرت مجرد إشارة ، إلى ضعف تفانى ، أو كفاءة رجالى ، أو سخرت مما نفعل ، سأرسل ملفك السرى كله ، إلى كبريات الصحف ، فى

جميع أنحاء العالم . وأنت تعلمين أنه يحوى كل ما يكفى ؛ لأن يضطر الرئيس إلى التخلى عنك ، والتضحية بمستقبلك كله ؛ حتى لا يخسر فرصته الأخيرة ، فى الترشيح لفترة رياسة ثانية .

امتقع وجهها بشدة ، وهى تسمعه ، وحاولت أن تقول أى شىء ؛ لإعلان اعتراضها وغضبها ، إلا أنها أدركت صحة ما يقول ، وأنه لن يتردد لحظة واحدة ، فى تدمير مستقبلها كله ، إذا ما تجاوزت حدودها ، فابتلعت كل ما تشعر به فى أعماقها ، وسألته محاولة تجاوز الموقف كله :

- هل من أخبار عن ذلك المصرى ؟!

أدرك مدير المخابرات الأمريكية هدفها ، فتجاوز الموقف بدوره ، وهو يقول فى هدوء :

- لقد تزوّد بالوقود للمرة الأولى بالفعل ، من حاملة الطائرات (جونسون) ، والرجال هناك يؤكدون أنه طيار بارع إلى درجة مدهشة ، وأن هبوطه وإقلاعه كانا مثاليين ، حتى إن بعض طياريهم قد شعروا بالغيرة منه .

مطّت شفتيها ، قائلة فى مقت :

- لست أصدق أن مصريًا يمكن أن يكون بهذه البراعة .

صمت مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

- لو أنك تعيشين عالمنا ، لأدركت أن المصريين ليسوا بالتفاهة التى تتصورينها ، وأنهم عباقرة فى عدة مجالات ، ومقاتلون لا يشق لهم غبار ، فى مضمار القتال .

قالت فى غضب :

- هل يثيرون إعجابك إلى هذا الحد ؟!

أجابها فى سرعة وحزم :

- فى عالمنا ، نحترم الأبطال ، أيًا كانت جنسيتهم ، ولو لم يكن ذلك الرجل لخطورة ، فى عالم المخابرات والجاسوسية ، لما أصر الإسرائيليون على ضرورة التخلص منه بأى ثمن كان .

قالت بنفس المقت :

- دعه ينجز مهمته أولاً ، وليتخلّصوا منه فيما بعد .. أنا شخصيًا سأجرى اتصالاتى مع الإسرائيليين ، و ---

قاطعها بغتة ، وهو يهتف :

- يا إلهى ! يا إلهى !

سألته ، بكل توتر الدنيا :

- ماذا حدث هناك ؟!

صاح بها ، وقلقله الجارف يكاد ينسف عقلها :

- لن تصدقي ما فعلته تلك الحقيرة هذه المرة أيتها المستشارة .. لن تصدقي أبدًا .

صاحت به :

- ماذا حدث بالله عليك ؟!

وأخبرها مدير المخابرات بما حدث ..

واتسعت عيناها عن آخرهما ..

وهوى قلبها بين قدميها ..

فما فعلته الزعيمة الفاشستية هذه المرة ، كان مخيفًا ..

مخيفًا بحق ..

* * *

التقط مدير المخابرات المصرية تلك البرقية العاجلة ، التي قدمها له مساعده الأول ، وقرأ كلماتها في سرعة ، قبل أن يتراجع في مقعده ، ويرفع سبابته إلى ذقنه ، قائلاً :

- إذن فقد تزوّد (ن - ١) بالوقود للمرة الثانية !

ابتسم المساعد ، وهو يقول :

- من الواضح أن سيادة العميد يبهرهم بمهارته وقدراته المدهشة يا سيدي ، فهم يتحدثون عنه ، كما لو كان أسطورة حية .

غمغم المدير :

- إنه كذلك بالفعل .

قالها في شيء من الشرود ، فتطلع إليه مساعده بضع لحظات في صمت ، قبل أن يسأله في حذر :

- ما الذي يقلقك يا سيدي ؟!

رفع المدير عينيه إليه في صمت ، طال لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن يقول في قلق واضح :

- المرحلة الثالثة من الرحلة .

سأله المساعد :

- وماذا عنها ؟! سيادة العميد (أدهم) طيار بارع للغاية ، باعتراف خبرائهم قبل خبرائنا ، وعملية التزود بالوقود في أثناء الطيران ، عملية تحتاج إلى المهارة وقوة التحكم في الطائرة ، وسيادته يجيد الأمرين بكفاءة تامة .

هزَّ المدير رأسه ، قائلاً :

- ليس هذا ما يقلقني .

قالها ، ونهض من خلف مكتبه ، واتجه نحو نافذة الحجرة ، ووقف يتطلَّع عبرها في صمت ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ثم لم يلبث أن سأل ، دون أن يلتفت إلى مساعده :

- ما أهم سلاح ، تواجه به أي خصم قوي ؟!

أجابه مساعده في سرعة :

- المعلومات .

أومأ المدير برأسه ، قائلاً :

- بالضبط .

وصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلتفت إلى مساعده ، قائلاً :

- لو راجعت ما يحدث ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، لعرفت أن كفة المعلومات هناك غير متوازنة على الإطلاق ، وأن تلك الزعيمة الغامضة ، التي توجه ضرباتها للعاصمة هنا وهناك ، لديها رصيد ضخم من المعلومات ، عن كل ما يدور

في دهاليز السياسة وخزائن العسكرية ، في معظم الأماكن والجهات ، شديدة الأهمية والخطورة ، في الولايات المتحدة كلها ، وأن لديها ما يسمح لها بالتسلل إلى أماكن شديدة الحساسية ، والدخول إلى مواقع بالغة الدقة ، في نفس الوقت الذي يفتقر فيه الأمريكيون إلى أية معلومات وافية عنها ، تتيح لهم التصدي لها ، ومواجهتها ، وإيقاف أو عرقلة مخططاتها .

وتوقَّف ليتنهَّد في عمق ، ثم تابع في قلق :

- وفي هذه المرحلة الأخيرة ، من رحلة (ن - ١) العجيبة الفريدة ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ستقترب مقاتلته رويداً رويداً من السواحل الأمريكية ، وستصبح في حاجة شديدة للتزوُّد بالوقود ، وإلا سقطت طائرته في المحيط .

تساءل مساعده ، وقد انتفض قلق عارم في أعماقه :

- سيدي .. هل تشير إلى احتمال حدوث معركة ما ، لمنع سيادة العميد ، من بلوغ (واشنطن) ؟!

أشار إليه المدير ، قائلاً في قلق :

- قل لي أنت ، لماذا أصرَّت تلك الزعيمة الغامضة ، على أن يكون (ن - ١) بالتحديد ، هو همزة الوصل ، بينها وبين

الحكومة الأمريكية ، في مفاوضاتها معها ؟! ولماذا رجل مخابرات مصري بالذات ؟!

ودون أن ينتظر جوابًا ، عاد يتطلّع عبر النافذة ، متابعًا بنفس القلق :

ـ ألا يبدو هذا في أعماقك بذرة شك ، في أنها وسيلة مبتكرة ؛ لجذب (ن ـ ١) إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، والقضاء عليه بوسيلة ما ؟!

غمغم المساعد في اضطراب ، دفعه إليه التفكير العميق :

ـ ربما يا سيّدي ؟

ثم استدرك في سرعة :

ـ ولكن هناك نقطة أخرى ، لا تقل أهمية وخطورة .

التفت إليه المدير مرة أخرى ، وسأله في اهتمام :

ـ وما هي ؟!

أجابه المساعد في سرعة :

ـ سيادة العميد (أدهم) يقود طائرة مقاتلة ، تعتبر الأحدث من نوعها ، ومع مقاتل مثله ، ستصبح أية محاولة لإسقاطه أشبه بالانتحار .

صمت مدير المخابرات طويلاً هذه المرة ، قبل أن يقول :

ـ هذا يقودنا إلى سؤال آخر .. كيف يمكن أن يسمح الأمريكيون لرجل مخابرات مصري ، بقيادة أحدث مقاتلاتهم ، والهبوط بها في (واشنطن) ، دون أن يتخذوا كل الاحتياطات اللازمة ، في هذا الشأن ؟!

وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يضيف :

ـ وجواب كل هذه الأسئلة يحتاج إلى السلاح نفسه .

وصمت لحظة أخرى ، قبل أن يكمل في حزم :

ـ المعلومات .

واحتواهما الصمت مرة ثانية ، وقد انطلقت أفكارهما إلى هناك ..

إلى المحيط ..

محيط الخطر ..

* * *

كل شيء سار على ما يرام ، حتى هذه المرحلة ..

الرحلة كانت طويلة ، ولكن المقاتلة الأمريكية الجديدة قوية بالفعل ، وتنطلق بسرعة مدهشة ..

وعمليتا التزود بالوقود تمتا في إطار الجدول المسبق، ودون أية متاعب أو مشكلات، باستثناء نظرات الحقد والغيرة، في عيون الطيارين الأمريكيين، وهم يتطلعون إلى المصري، الذي يقود أحدث طائراتهم، في مهارة مدهشة، تفوق أقصى ما يحلمون ببلوغه ..

ومن المؤكد أنهم، في تلك اللحظات، قد تذكروا تلك الحقيقة المؤلمة ـ بالنسبة لهم ـ والتي تؤكد أن كفاءة الطيار المقاتل المصري، تفوق بعدة مرات كفاءة أفضل طيار مقاتل أمريكي، أو حتى إسرائيلي؛ لأن الطيار المصري يعتمد دومًا على مهارته الشخصية، أكثر مما يعتمد على تكنولوجيا مقاتلته، كما يفعل الأمريكيون والإسرائيليون(*) ..

ولقد اقتربت المرحلة الثالثة، والمفترض أن تظهر طائرة الوقود، بين لحظة وأخرى ..

كانت المؤشرات تشير إلى أن الوقود يكفي لربع ساعة أخرى من الطيران، قبل أن ينفد تمامًا، قبل مئات الكيلومترات، من الساحل الأمريكي ..

وفي القمرة، أدار (أدهم) عينيه فيما حوله، وهو يغمغم:

ـ هيا يا طائرة الوقود .. لابد أن تظهري الآن.

(*) حقيقة، يمكن التأكد منها بسهولة، عبر شبكة الإنترنت.

كان يقود المقاتلة الأمريكية الحديثة بمهارة مذهلة، وبنشوة لم يشعر بمثلها من قبل؛ ربما لأن المأزق، الذي وقعت فيه زعيمة التنظيم العالمي الجديد قد كسر أنفها، وسحق غطرستها، ودفعها مرغمة إلى الاستعانة به ..

برجل مخابرات (مصري) ..

ومع الفكرة، تسللت إلى شفتيه ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

ـ لقد أقروا بالحقيقة، على الرغم منهم .. يا للمجرمين!

ثم تلاشت ابتسامته، وهو يتابع:

ـ ولو أن الأمر بيدي، لتركت تلك الزعيمة الغامضة تسحقهم سحقًا، جزاء لما فعلوه بنا.

قالها، وذهنه يستعيد عبارة رئيس الجمهورية، في لقائه معه، قبل أن يقابل مندوب المخابرات الأمريكية ..

« إننا لا نفعل هذا من أجل الولايات المتحدة الأمريكية أيها العميد (أدهم) .. إننا نفعله من أجلنا نحن .. فلو نجحت تلك الغامضة، في السيطرة على الإدارة الأمريكية، وهزيمة أكبر دولة في العالم، لن تتردد لحظة واحدة، في فرض سيطرتها على العالم كله .. وهي لن تستثني (مصر) بالتأكيد .. »

وكانت نظرية الرئيس صحيحة تمامًا ..

بالعمالقة .. كل العمالقة ، أن تسمح للخطر أن يستشرى ؛ لمجرد أنه بعيد عن حدودك ..

هذا لأن الطبيعة الاستعمارية لا تشبع أبدًا ..

أعطها قيراطًا ، وستطلب فدانًا ..

وفدانًا ..

وفدادين ..

وأرض الدنيا كلها ..

الوسيلة الوحيدة إذن لدرء خطرها ، هو أن تقتلها في مهدها ، وتسحقها مع مولدها .

أن تطيح بها ، قبل أن تطيح هي بك ..

وبما حولك ..

ومن حولك ..

وبالدنيا كلها فيما بعد ..

دارت تلك الأفكار في رأسه ، ومقاتلته تواصل انطلاقها ، فوق المحيط الأطلنطي ، وعيناه تبحثان فيما حوله ، و...

وفجأة ، ظهرت طائرة الوقود ..

ظهرت لحظة القرب ، وهي تتجه نحوه مباشرة ، في نفس اللحظة التي انبعث فيها صوت غليظ ، عبر جهاز الاتصال ، يقول :

ـ من بطة الوقود إلى النورس .. دقيقتان قبل مرحلة التوازي .. ثم بتخفيض السرعة ، استعدادًا لعملية التزود بالوقود .

ضغط (أدهم) زر الاتصال ، قائلاً :

ـ من النورس المصري إلى بطة الوقود الأمريكية .. تسلمنا رسالتكم ، ويتم الآن تخفيض السرعة ، إلى مستوى يتناسب عملية التوازي .

أتاه ذلك الصوت الغليظ ، يقول :

ـ عبارتك غير صحيحة أيها النورس .. المفترض ألا يتم ذكر الجنسيات .

أجابه (أدهم) في سخرية :

ـ اعتبر هذا تجاوزًا مشاغبًا أيها الأمريكي .

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول صاحب الصوت الغليظ ، وطائرة الوقود تقترب أكثر :

ـ فليكن أيها المصري .

أجابه المدير في سرعة :

- ونحن نعتذر عن إعلامكم إياه ، فقانوننا ولوائحنا تمنع خروج أحد رجالنا ، في مهمة خارج الحدود ، لحساب أية دولة أخرى ، وخاصة عندما يحيط الغموض بتفاصيل تلك المهمة ، أو مداها ، أو الهدف منها .

تضاعفت عصبية الأمريكي ، وهو يقول :

- ولكن أوامري تمنع الـ ...

قاطعه الرئيس هذه المرة ، بمنتهى الحزم والصرامة :

- لقد سمعت ما قاله مدير جهاز المخابرات العامة .. وهذا ردنا النهائي .. إما أن نعلم لماذا تريدون الاستعانة برجلنا ، أو تعود إلى وطنك برد سلبي حاسم .

بدت الحيرة واضحة ، على كل خلجة من خلجات رجل المخابرات الأمريكي ، الذي تلفت حوله في عصبية ، وغمر العرق البارد وجهه ، قبل أن يضغط بيده ، قائلاً :

- لابد لي من الاتصال برؤسائي أولاً .

أشار الرئيس إلى هاتفه الخاص ، قائلاً :

- ومن منعك من هذا ؟!

جفف الأمريكي عرقه الغزير ، بكل توتر الدنيا ، وهو يلتقط سماعة هاتف الرئيس ، قائلاً :

- معذرة .. لست مخولاً لاتخاذ قرارات ، على هذا المستوى .

لم يستغرق حديثه مع رؤسائه سوى دقائق قليلة ، على نحو يوحي بأنهم كانوا يتوقعون هذا الموقف المصري ، بدليل أنه لم يكد ينهي المحادثة ، حتى التفت إلى الرئيس ومدير مخابراته ، قائلاً :

- الرؤساء وافقوا على إطلاعكم على كل شيء أيها السادة ، ويناشدونكم الإبقاء على الأمر سراً ، وعلى الكتمان التام .

مصطلح (يناشدونكم) هذا ، كان يوضح تماماً ضعف الموقف الأمريكي ، وانقلابه رأساً على عقب ، لذا فقد أشار الرئيس بيده ، وهو يقول في حسم :

- ليكن هذا .

وهنا ، أفصح مندوب المخابرات الأمريكية ، وبدأ يروي للرئيس ومدير مخابراته كل شيء ..

بكل التفاصيل ..

بلا استثناء ..

* * *

«لكم أبغض هؤلاء العرب ..»

نطقت مستشارة الأمن القومي الأمريكية العبارة، بلهجة حملت كل مقت الدنيا، وهي تقف داخل المكتب البيضاوي للرئيس الأمريكي، في قلب البيت الأبيض، فلوح وزير الدفاع بيده، وهو يقول في حدة:

- ليس هذا وقت إبراز المشاعر الشخصية .. كل دقيقة لها ثمنها الآن، وليس من حقنا أن ننشغل بأمور شخصية، والوقت يمضي على هذا النحو.

مطت مستشارة الأمن شفتيها في مقت، وهي تقول:

- ولكنها الحقيقة .. أنا أبغضهم بشدة، منذ .. منذ ..

لم تستطع إتمام عبارتها، فقال مدير المخابرات، في غضب صارم:

- دعيني أخبرك أنا منذ متى! منذ خذلك عربي، وقعت في غرامه، في أثناء فترة دراستك الجامعية.

احتقن وجهها بشدة، وهي تهتف:

- إنني لم أقع أبدًا في ...

قاطعها مدير المخابرات في حدة:

- أمن الضروري أن أخبرك باسمه، وجنسيته، والوظيفة التي يشغلها في دولته حاليًا؟!

عضت شفتها السفلى في غضب، قبل أن تقول:

- كلا .. ليس من الضروري أن تفعل.

هتف الرئيس الأمريكي في حدة:

- كيف يلائم هذا الحديث السخيف؟! ما شأن بغضك للعرب، بما نواجهه الآن؟!

لوحت بذراعها، قائلة:

- تلك الحقيرة اشترطت أن يكون ذلك المصري، الذي أقرنا دولته بضرورة التخلص منه، هو المفاوض الرئيسي في العملية كلها، مما اضطرنا إلى الانحناء أمام المصريين، والسعي للاستعانة برجلهم، الذي أثار عصبية أصدقائنا الإسرائيليين.

قال الرئيس في غضب:

- ونحن مضطرون لقبول شرطها، كما اضطررنا للموافقة على دفع مائة مليار دولار لتلك الحقيرة، حتى لا تسقط هيبتنا أمام العالم كله .. وهل تعرفين لماذا اضطررنا إلى

هذا وذاك ؟! إن أجهزة الأمن هنا تمتلك شهرة ، تفوق قدرتها الطبيعية والفعلية ؛ حتى إنها عجزت تمامًا عن كشف هوية تلك المنظمة ، وموقعها ، وطبيعة السلاح الذي تستخدمه ، ووسيلتها في استخدامه .. وما دمنا نفتقر إلى المعلومات ، على هذا النحو المخزي ، فليس أمامنا سوى الاستسلام خفية ، حتى لا نضطر إلى الاستسلام علانية في المستقبل القريب .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول في توتر :

- إننا نواجه محترفين ياسيادة الرئيس .

صاح به الرئيس الأمريكي :

- كنت أظنكم أيضًا محترفين يا هذا .

شدّ مدير المخابرات قامته في توتر ، وهو يقول :

- رجالي يعملون ليل نهار ياسيادة الرئيس ، وبعضهم لم يذق النوم ، منذ أكثر من يومين .

سأله وزير الدفاع في عصبية :

- وما الذي توصلوا إليه ، بعد كل هذا ؟!

أجابه مدير المخابرات في سرعة :

- أنها عملية محترفة .

هتف الرئيس الأمريكي ، في لهجة استنكارية :

- عملية ؟! أهذا كل شيء ؟!

حاول مدير المخابرات المركزية الأمريكية أن يتجاوز عبارة الرئيس ، وهو يواصل ، قائلاً :

- ربما تكون قد تسللت إلى البلاد ، منتحلة شخصية [لورا كيلرمان] بالفعل ، فقد عثرنا على بيانات هذه الأخيرة لدينا ، ولكنها حتمًا ليست هي ، فخبراؤنا يؤكدون أنها ترتدي قناعًا مطاطيًا بالغ الرقة ، وشديد الإتقان ، وأنها تتعمد إخفاء شخصيتها الحقيقية لسبب ما ، هو أنها - على الأرجح - شخصية معروفة ، في عالم الجريمة ، أو عالم الجاسوسية .

سأله وزير الدفاع في اهتمام :

- هل يثق خبراؤك بهذا الرأي ؟!

واصل مدير المخابرات ، وكأنه لم يسمع السؤال :

- أما قصة شريط الفيديو ، الذي سينسف شبكة البث الداخلية ، لو تم إطلاقه أو انتزاعه ، فهي كاذبة وملفقة من أساسها ، ولكنها شديدة البراعة ، إلى حد مدهش ..

قلبت مستشارة الأمن القومي شفتيها، قائلة في امتعاض:

- خائبة، ومقلقة، وشديدة البراعة ؟! أي قول مريض هذا ؟!

رمقها مدير المخابرات بنظرة صارمة، وهو يقول:

- ما رأيتموه وتابعتموه، على شاشة العرض، في قاعة اجتماعات الكونجرس، لم يكن شريطًا مسجلاً.

اتسعت عينا الرئيس الأمريكي، وانفرج فاه على نحو عجيب، في حين وثب وزير الدفاع من مقعده، هاتفًا:

- لم يكن ماذا ؟!

أما مستشارة الأمن القومي، فقد انعقدت سحنتها في غضب، وهي تهتف في حدة:

- ما الذي تعنيه بقولك هذا ؟!

أجابها في صرامة:

- ما رأيتموه كان بثًا مباشرًا.

ثم خفض صوته، وهو يضيف:

- من داخل مبنى الكونجرس نفسه.

بدا قوله هذا أشبه بصاعقة، هوت على رءوس الجميع، فاتسعت عيونهم عن آخرها، وحدقوا في وجه مدير المخابرات في ذهول، قبل أن تهتف مستشارة الأمن القومي في حدة:

- هناك جاسوس في المبنى.

أجابها مدير المخابرات في حزم:

- الأمر أكثر من مجرد جاسوس، فأجهزة الفحص الإليكترونية لم تسجل دخولها، ومراقب البث الرقمي لم يدرك وجود بث حي، والحجرة التي تم البث منها، لم تعمل آلات المراقبة فيها..

والتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يتابع:

- باختصار.. كانت هناك سيطرة إليكترونية تامة على المبنى، ولقد أبعدت عن نظرنا عنها، عندما أوهمتنا بأننا نشاهد شريطًا مسجلاً.

اندفعت مستشارة الأمن القومي نحوه بغتة، وأمسكت ساعده في قوة، حتى كادت أصابعها تغوص في كمه، وهي تهتف:

- لابد أن نظفر بهذه اللعينة.. هل تفهم ؟!

أزاح الرجل يدها بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ وكيف آيتها البارعة ؟!

صاحت في حنق :

ـ أبحث عن وسيلة .. أية وسيلة !

قال في غضب :

ـ وما الذي تطلبينا نفعله ؟!

صاحت :

ـ أيًا كان ماتفعلونه ، فينبغي أن تفعلوه ، وإلا فستفاجئنا ذات صباح ، لنجد أن تلك الطرقة قد سيطرت على مقاليد الأمور .

هزَّ مدير المخابرات رأسه في قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل ! إنها تحصل على ماتريد ؛ لأنها تندفع إلى الهدف فحسب ، بحيث لانجد الوقت الكافي ، للسعي خلفها ، ومحاصرتها بمعلوماتنا وتحركاتنا ، ولكننا سنمنحها المال ؛ لنربح بعض الوقت ، الذي سنحتاجه في معرفة هويتها ، وجمع كافة المعلومات عنها ، بحيث ننقض عليها في الوقت المناسب ، قبل أن تستمتع بما ستحصل عليه منا .

سأله الرئيس فجأة :

ـ السؤال هو : كيف ستحصل عليه منا ؟!

استدار الجميع إليه ، غير مستوعبين طبيعة سؤاله ، فاستطرد في توتر ملحوظ :

ـ هل تدرك أنت حجم الفراغ ، الذي يمكن أن يحتله مائة مليار دولار ؟!

غمغم وزير الدفاع ، وهو يدير عينيه فيما حوله :

ـ أظنها تحتاج إلى حجرة كهذه .

أجابه مدير المخابرات في سرعة :

ـ هذا لو طلبتهم نقدًا .

سألته مستشارة الأمن في عصبية :

ـ ماذا تعني ؟!

أجابها بنفس السرعة :

ـ أعني أنها محترفة ، وتدرك جيدًا أن النقود يمكن تتبعها بأية وسيلة ، لذا فلن تطلب الحصول على المبلغ أبدًا ، في شكل أوراق نقدية .

سأله الوزير في اهتمام :

- كيف ستحصل عليه إذن ؟!

أشار مدير المخابرات بسبابته ، مجيبًا :

- من الناحية الاحترافية البحتة ، لا يوجد أفضل من الماس .

اعتدل الرئيس في مقعده ، متسائلاً في اهتمام بالغ :

- حقًا ؟!

أجابه مدير المخابرات في حزم :

- الماس الذي صغير الحجم ، باهظ الثمن ، وحفنة واحدة منه ، قد تساوي ملايين الدولارات ، أي أن حقيبة من الماس شديد النقاوة ، قد تساوي المبلغ كله .

بدت مستشارة الأمن القومي شديدة الانفعال ، وهي تقول :

- حقيبة واحدة ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. حقيبة بسيطة ، لا تلفت الانتباه إليها أبدًا ، في مكان مزدحم برجال الأعمال ، مثل (وول ستريت) .

صمت الجميع تمامًا ، بعد عبارته الأخيرة ، وتبادلوا

نظرة طويلة ، قبل أن تقول مستشارة الأمن القومي في صرامة :

- لو أن هذا هو الحل الاحترافي الوحيد ، فلِمَ لا نستعد لمواجهته بالفعل ؟!

سألها مدير المخابرات في اهتمام :

- وكيف هذا ؟!

أجابت في توتر :

- بأن نعد الحقيبة على الأقل ، ونزودها بجهاز تعقب إليكتروني ، و....

قاطعها مدير المخابرات ، قائلاً :

- هراء .

استدارت إليه بحركة حادة غاضبة ، ولكنه تجاهل انفعالها تمامًا ، وهو يقول :

- استخدام حقيبة مزودة بجهاز تتبع ، مع امرأة نجحت في السيطرة على النظام الأمني الإليكتروني ، بكل الدقة والحداثة في الكونجرس ، أشبه بمحاولة الانتحار بمسدس صدئ .. كثير من الألم ، وقليل من التأثير .

قالت المستشارة في حنق :

- وما الذي تقترحه أنت إذن ، يا عبقري المخابرات ؟!

أشار مدير المخابرات بسبابته ، وهو يجيب في سرعة :

- القمر الصناعي .

تألقت عينا مستشارة الأمن ، وهي تهتف :

- آه .. بالطبع .. كيف نسينا هذا ؟! إننا نستطيع تتبع خط سير عميلهم المصري ، بوساطة أقمارنا الصناعية للتجسس .. إنها قادرة على تحديد لون الملابس الداخلية لأي شخص ، في أي مكان في العالم ، و...(*)

قاطعها مدير المخابرات ، في سخرية متصاعدة :

- وهل صدقت هذه الدعاية ، يا مستشارة الأمن القومي البارعة ؟! المفترض منها أن ترهب خصومنا ، لا أن نصدقها نحن .

عاد وجه مستشارة الأمن يحتقن ، وهي تهتف :

- أيها الـ ...

(*) أثناء حرب (العراق) الثانية ، أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية ، أن أقمارها الصناعية للتجسس ، قادرة على معرفة لون الملابس الداخلية للرئيس العراقي ، وفي أثناء الحرب فشلت حتى في العثور على الرئيس نفسه .

قاطعها الرئيس الأمريكي ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته ، ويهب من مقعده بحركة حادة :

- كفى .

صمت الجميع ، والتفتوا إليه في توتر ، فتابع في غضب :

- أشعر وكأنني في حجرة ، تضم بعض أطفال مرحلة الحضانة ، وليس كبار المسئولين في الدولة !! إنكم تتشاجرون وتتشاحنون ، حول تفاهات سخيفة ، في الوقت الذي تواجه فيه البلاد أخطر كارثة ، في تاريخها كله .

احتقن وجه وزير الدفاع ، وعقدت مستشارة الأمن حاجبيها في توتر ، في حين ارتبك مدير المخابرات المركزية ، وهو يقول :

- معذرة يا سيادة الرئيس .. لم نكن نتشاحن في الواقع ، ولكنني كنت أشرح اقتراحًا خاصًا بالأقمار الصناعية ، و...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، قبل أن يحتقن وجهه ، ويهتف بكل انفعال الدنيا :

- سيادة الرئيس .. لقد عرفت ماهية السلاح ، الذي تستخدمه

خصمتنا ، لتوجيه ضربتها الساحقة .. يا إلهي ! لقد عرفته بالفعل .

وكانت مفاجأة حقيقية للجميع

مفاجأة قوية ، وعنيفة ..

للغاية .

* * *

٦ - الرحلة العجيبة ..

« ما أروع الحياة هنا ! »

هتف (قدري) بالعبارة ، في استمتاع كبير ، وهو يسترخي على مقعد شاطئ وثير ، أمام مياه القناة ، ويلتهم فطيرة ساخنة ، وإلى جواره طبق يمتلئ بالفطائر المماثلة ، وزجاجة مياه غازية ضخمة ، من الطراز المخصص للاستخدام العائلي ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، ارتفع معه كرشه الضخم ، فربت عليه في رفق ، مستطردًا في حرارة :

- لست أدري لماذا لم تدعنا إلى هنا من قبل يا (أدهم) ، ما دمت تمتلك المكان منذ ما يقرب من عشر سنوات ، كما تقول ؟!

كان يتوقع ردًا على تساؤله ، إلا أن (أدهم) لم ينبس ببنت شفة ، وهو يجلس على مقعد مجاور له ، متطلعًا إلى مياه القناة ، في شرود عجيب ، فاعتدل يسأله مرة أخرى :

- (أدهم) .. هل ..

أمسكت (منى) يده فجأة ، لتمنعه من الاستطراد ، وهي تقول في خفوت ، حمل قدرًا ملحوظًا من الحزم :

- اصمت يا (قدري) .

التفت إليها (قدري) في دهشة، فتابعت بحزم أكبر:

- اتركه لحاله الآن.

لاذ الاثنان بالصمت التام، وهما يراقبان (أدهم)، الذي بدا وكأنه قد انفصل تمامًا عما حوله، وغرق بكيانه كله في لجة من الأفكار، وعيناه تتطلعان إلى مياه القناة، في صمت شارد عميق..

ولقد طال صمته..

وطال..

وطال..

ولكن أحدهما لم ينبس ببنت شفة..

كلاهما راح يراقبه، في اهتمام ممزوج بالقلق والتعاطف، وكأنهما لم يرياه أبدًا على هذا النحو..

(منى) بالذات، كان قلبها يتفطر من أجله..

كان يتعذب..

ويتألم..

ويبكي..

وعبر جسدها كله، انطلقت دموع قلبها تسري في عروقها، وتلتهب معها كل خلية من خلاياها، حتى تمنت لو أنها تستطيع أن تنقل كل أحزانه وآلامه إليها؛ لتراه مبتسمًا حيويًا، كما عهدته دائمًا..

لقد استضافهما في فيلته الصغيرة، وعلى الرغم من اهتمامه البالغ، بتوفير كل سبل المتعة والراحة لهما، ومن أحاديثهما الطويلة، التي كانت تستمر في بعض الأحيان، حتى مطلع الفجر، أو حتى يرتفع شخير (قدري)؛ لينطفئ على كل ما حوله، كانت تشعر أنها لا تجلس مع (أدهم صبري) الذي تعرفه..

ليس مع ذلك الرجل، الذي تتفجر الحماسة دومًا من كل خلية في جسده، وتتألق الحيوية طوال الوقت، وهي تطل من عينيه..

ليس ذلك البطل، الذي ظلت مبهورة به، طوال فترة عملها كلها معه..

إنه الآن شخص آخر..

شخص تبتسم شفتاه، على الرغم من محيط الحزن والأسى، الذي يفيض من عينيه..

شخص يحمل هموم الدنيا كلها في صدره ..

في عقله ..

في قلبه ..

وفي كيانه كله ..

ومن الواضح أنه يخفي في أعماقه سرًا كبيرًا ..

سرًا يتعلق بمعشوقته الأولى ..

(مصر) ..

سرًا يرفض الإفصاح عنه ، حتى لها أو لـ (قدري) ..

ويا له من سر !

رباه ! كم تحبه !

كم تتعذب وتتمزق من أجله !

كم تتمنى لو تمنحه سعادة الدنيا كلها ، حتى تمحو من قلبه كل ما يلوح به من عذابات وأحزان ..

وبكل حب وحنان وأسى ولوعة الدنيا ، تطلعت إليه في صمت ، وقلبها يخفق من أجله ..

ويخفق ..

ويخفق ..

و .....

« هل تعلمون كم مرة عبرت فيها مياه هذه القناة ؟! »

نطقها (أدهم) فجأة ، وهو يواصل التطلع إلى مياه القناة ، فانتفض جسد (منى) ، وكأنه قد انتزعها من سبات عميق ، في حين تساءل (قدري) ، في اهتمام حقيقي :

ـ كم ؟!

هز (أدهم) رأسه في بطء ، واستدار إليهما بابتسامة هادئة ، لم تنجح في محو الحزن المطل من عينيه ، وهو يقول :

ـ أنا نفسي أجهل العدد الصحيح ، فقد كنت عابرًا أساسيًا ، في كل العمليات التي قامت بها وحدات الصاعقة ، قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م .. كنا نعبر القناة ، تحت جنح الظلام ، ونوجه إلى العدو ضربات عنيفة قاصمة ، فتدمر وحداته ، وننسف مخازن ذخيرته ، ونقطع خطوط مواصلاته ، ثم نعود إلى وحداتنا ، قبل مطلع الفجر .

حملت كلماته لمحة مدهشة ، توحي بأنه يستعيد ذكرى سعيدة ، على الرغم من الحزن ، الذي لم يفارق عينيه أبدًا ، فتمتمت (منى) :

ـ أظنها كانت أفضل أيامك .

تطلع إلى عينيها بضع لحظات في صمت ، قبل أن يهز رأسه في بطء ، مجيبًا بصوت دافئ حنون :

- كلا .

ثم مال نحوها ، والتقط أصابعها الرقيقة في راحته ، وهو يضيف ، بصوت أكثر دفئًا وحنانًا :

- أفضل أيامي على الإطلاق ، تلك التي عملنا فيها معًا .

ارتفع حاجبا (قدرى) في تأثر ، وبدا له أنه سينفجر باكيًا ، فأشاح بوجهه ، في محاولة لإخفاء دموعه ، التي تألقت في استماتة ، للانهمار من عينيه ، في حين سرت قشعريرة دافئة عجيبة ، في جسد (منى) كله ، وهي تهتف بصوت ارتجفت نبراته :

- (أدهم) .

مال نحوها أكثر ، وهو يقول :

- (منى) .. لقد أضعنا الكثير من الوقت ، والتهمتنا المتاعب ، التي لم تتوقف عن وضع نفسها في طريقنا ، منذ زمن طويل ، حتى نسينا أنفسنا .

سرت ارتجافة خافقة في جسدها ، وخفق قلبها بين

ضلوعها في قوة ، وارتفعت الدماء إلى وجنتيها ، وحاولت أن تقول شيئًا ..

أي شيء ..

ولكن الكلمات تحشرجت في حلقها ، ورفضت الخروج إلى شفتيها ، وهي تتطلع إليه في لهفة ، متسائلة عما إذا كان سينطقها أخيرًا ..

أما هو ، فقد صمت لحظة ، امتزج خلالها ذلك الحزن المطل من عينيه ، بفيض من الحب والحنان ، قبل أن يقول ، بصوت حمل دفء الدنيا كله :

- (منى) .. هل ..

وفجأة ، وقبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين هاتفه المحمول ..

ارتفع ليشتت انتباههما بغتة ، من ذلك البحر من المشاعر ، حتى إن (منى) قد انتفضت في عنف ، وهي تطلق شهقة مرتفعة ، في حين سقطت الشطيرة من يد (قدرى) ، وهو يهتف :

- رباه !

الوجه الذي تصرف بغضب متوقع . كان (أدهم) نفسه ، الذي اعتدل في سرعة ، والتقط هاتفه المحمول بحركة تلقائية ، وضغط زر الاتصال فيه ، دون أن يلقي نظرة على شاشته ، وقال في حزم :

- (ن - ١) ياسيدي .

كان من الواضح أن الرنين الخاص ، الذي انطلق من هاتفه ، والذي يختلف عن رنينه المعتاد ، كان ينبئه بأن محدثه هو مدير المخابرات العامة نفسه ، لذا فقد هب من مقعده ، وابتعد عن رفيقيه بضع لحظات ، وهو يستمع إليه في اهتمام بالغ ..

وفي دهشة ، تساءل (قدري) :

- لماذا استخدم (أدهم) كوده السري ؟!

غمغمت (منى) ، وقلبها يخفق في قوة :

- إنه اتصال من الإدارة .

اعتدل (قدري) ، هاتفًا في انفعال :

- حقًا ؟!

وكعادته ، فلما بلغ الطعام ذروته ، التقط شطيرة جديدة .

وقضم منها قطعة كبيرة ، لاكها بين فكيه ، في سرعة كبيرة ، وهو يراقب (أدهم) ، الذي استغرق بمشاعره كلها ، في الاستماع إلى مدير المخابرات ، دون أن يقاطعه بحرف واحد ، وهو يبتعد عن رفيقيه بخطوات واثقة حاسمة ، حتى بلغ سور الفيلا ، قبل أن يقول في حزم :

- كلي فداء لـ (مصر) ياسيدي .. أنا مستعد تمامًا لتنفيذ المهمة ، مهما كان الثمن .

ثم عاد إلى صمته واستماعه ؛ لنصف دقيقة أخرى ، قبل أن يقول :

- أنا مستعد تمامًا ... سأعد حقيبتي في سرعة .. وأنتظرهم .

أنهى الاتصال ، وتحرك عائدًا إلى رفيقيه ، فتساءل (قدري) في لهفة وانفعال :

- هل تعتقدين ..

قاطعته في انفعال :

- أي سؤال هذا ؟! ألم تر كيف هو الآن ؟!

كانت صادقة في تساؤلها تمامًا ، فـ (أدهم) ، الذي اتخذ طريقه نحوهما ، في خطوات قوية حيوية ، كان يختلف

تمامًا عن ذلك الذي كان يجلس ، منذ دقائق قليلة ، محدقًا إلى مياه القناة في شرود ..

وعندما اقترب منهما ، شعرت (منى) بارتجافة جديدة ، تنطلق عبر كيانها كله ، وهي تتطلع إلى عينيه ، اللتين زايلهما ذلك الحزن العميق القلق ، لتحل محله نظرة مفعمة بالحيوية والنشاط ، اللتين انتقلا إلى صوته ، وهو يقول :

ـ يمكنكما البقاء هنا حسبما تشاءان يا رفاق ، فأنا مضطر للعودة إلى (القاهرة) فورًا .

قال (قدرى) في دهشة :

ـ إلى (القاهرة) ؟! هل طلبوا عودتك ، في العاشرة صباحًا ؟!

أما (منى) فانتفضت ، قائلة في حزم :

ـ إذن .. سأرافقك إلى هناك ، و ..

استوقفها بإشارة من يده ، وهو يقول :

ـ معذرة يا عزيزتي ، ولكن الهليكوبتر لن تتسع إلا لشخص واحد .

ارتفع حاجبا (قدرى) في دهشة بالغة ، في حين هتفت (منى) :

ـ هليكوبتر ؟! أهي مهمة عاجلة إلى هذا الحد ؟!

امتزج جوابه بهدير مراوح الهليكوبتر ، التي ظهرت في سماء المكان ، وهو يقول ، بلهجة حملت استمتاعًا واضحًا :

ـ هي كذلك بالفعل .

وخفق قلب (منى) مرة أخرى بقوة ..

بمنتهى القوة ..

* * *

بدا (آلان راندويل) ، مندوب المخابرات المركزية الأمريكية ، شديد التوتر والانفعال ، وهو يصافح (أدهم) ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا سيد (أدهم) .. يسعدني وصولك إلى هنا بهذه السرعة ، فكل دقيقة لها ثمنها الآن ، والرؤساء في الولايات المتحدة ، يطلبون وصولك إلى هناك ، بأقصى سرعة ممكنة .

قال (أدهم) في هدوء :

ـ بالنسبة للسفر إلى هناك ، لن تنخفض أقصى سرعة هذه عن عشر ساعات على الأقل .

هز الأمريكي رأسه نفيًا ، وهو يقول في حزم :

ـ إنهم يريدونك هناك ، خلال ست ساعات فحسب .

ارتفع حاجبا (أدهم) في دهشة، وهو يقول:

- ست ساعات !! ولكن ما من طائرة يمكنها أن تقطع هذه المسافة، خلال ..

قاطعه الأمريكي بمنتهى الحزم:

- إننا نتحدث عن مقاتلة حربية، من أحدث طراز متاح.

انعقد حاجبا (أدهم) في شدة، وهو يقول:

- مقاتلة حربية ؟!

أجابه (راكويل) في سرعة:

- نعم .. مقاتلة حربية جديدة، يمكنها أن تؤمن السرعة المناسبة، التي تساعدك على الوصول إلى (واشنطن)، خلال ست ساعات.

قال (أدهم)، وهو يعقد ساعديه أمام صدره:

- أعرف تمامًا قدرات مقاتلتكم الجديدة، وسرعتها الفائقة، التي تبلغ ضعف السرعات القصوى المعروفة.. ولكن معلوماتي تقول: إنها لا تصلح إلا لراكب واحد، وهو قائدها، ثم إن خزان وقودها لا يسمح لها بقطع هذه المسافة الهائلة، دون التزود بالوقود ثلاث مرات على الأقل.

انعقد حاجبا (راكويل)، وهو يسأله في توتر:

- ما الذي تعرفه أيضًا، عن مقاتلتنا الجديدة الـ ... السرية ؟!

ضغط حروف الكلمة الأخيرة، في غضب واضح، فهز (أدهم) كتفيه في هدوء، مجيبًا:

- تصميمات مقاتلتكم الجديدة، التي تتصورونها سرية، كانت ترقد في أعماق خزانة (جون روتشيلد)، مستشار الأمن القومي الإسرائيلي، عندما اقتحمناها نحن، لنحصل منها على بعض الأوراق المهمة، التي أرسلناها إليكم، فتجاهلتم محتواها تمامًا.

سأله (راكويل) في غضب:

- أتعني أن الإسرائيليين هم الذين ..

لم يتم تساؤله، فقال (أدهم) في سخرية:

- نعم .. هم الذين ... والذين أيضًا.

ازداد انعقاد حاجبي (راكويل)، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة، فارتسمت على شفتي (أدهم) ابتسامة ساخرة، وهو يرفع أحد حاجبيه، ثم يخفضه، على نحو عصبي مستفز، جعل الأمريكي يقول في حدة:

- قليلون يا مستر (أدهم) .. لا وقت لدينا للدخول في مثل هذه المناقشات السخيفة . فلكل دقيقة ثمنها ، كما سبق أن أخبرتك .

ثم تنحنح ، وشد قامته ، ليضيف في حزم :

- أنت ستقود مقاتلتنا .

كان متوقعًا أن تتسع عينا (أدهم) في دهشة وانبهار ، إلا أن هذا الأخير ظل هادئًا قويًا ، وهو يتساءل :

- وماذا عن مشكلة الوقود ؟!

فرد الرجل أمامه خريطة ملاحية ، وأشار إليها ، مجيبًا :

- في هذه البقعة ، وفي تلك أيضًا ، ستكون هناك حاملتا طائرات في انتظارك ، ولديهما كل الأوامر اللازمة لتزويدك بالوقود ، فور هبوطك على سطح أيٍّ منهما .

قال (أدهم) بنفس الهدوء والقوة :

- الهبوط على سطح حاملة طائرات ، في قلب المحيط ، ليس بالأمر الهين ، وأنا لم أقم به من قبل قط .

أشار (راكويل) بسبابته ، قائلاً في توتر :

- ولكن ملفك يؤكد أنك طيار بارع ، لا يشق له غبار ،

كما تقولون في لغتكم ، ونؤمن جميعًا ثقة شديدة ، بأنه باستطاعتك القيام بهذا .

ابتسم (أدهم) ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

- قلت : إنه ليس بالأمر الهين ، ولم أقل : إنه مستحيل !

قال (راكويل) في سرعة :

- وحتى لو كان ذلك .

وتوقف لحظة ، عضّ خلالها شفته السفلى في مقت ، قبل أن يتابع :

- فملفك يقول : إنك قادر على قهر المستحيل .

هزّ (أدهم) كتفيه في لامبالاة ، وهو يتساءل :

- وماذا عن المرة الثالثة ؟!

تطلّع إليه (راكويل) بنظرة غريبة لبضع لحظات ، وكأنه لا يفهم السؤال ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، هاتفًا :

- آه .. تقصد احتياجك إلى التزود بالوقود لثالث مرة .

قال (أدهم) ، في لهجة حملت لمحة ساخرة :

- بالضبط .

ابتلع الأمريكي غضبه ، وهو يجيب :

- ستكون قد اقتربت من سواحل الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما . لذا سيتم تزويدك بالوقود في أثناء الطيران ، بوساطة طائرة وقود ضخمة ، ستحلق فوقك ، وتمد أنبوبًا طويلاً ، إلى فتحة الوقود في مقاتلتك ، وكل ما سيكون عليك فعله عندئذ ، هو أن تخفض من سرعة المقاتلة ، حتى تتناسب مع سرعة طائرة الوقود ، خلال فترة التزود فحسب ، ثم ..

قاطعه (أدهم) هذه المرة في حزم :

- أعرف ما ينبغي فعله حينذاك .

التقط الأمريكي نفسًا عميقًا ، وهو يتطلع إليه مباشرة ، قبل أن يمد يده لمصافحته ، قائلاً :

- أعلم جيدًا أنك تؤدي هذه المهمة ، فقط لأنك تلقيت الأوامر بهذا من رؤسائك ، أو لأنكم ستحصلون على تعاون كبير منا ، مقابل تعاونكم معنا ، ولكنه لو تعلق الأمر بنا وحدنا ، لما حركت سبابتك من أجلنا .

قال (أدهم) في برود :

- هذا صحيح .

تجاهل الأمريكي قوله تمامًا ، وتابع :

- واعلم أيضًا أن المهمة ، على الرغم مما تبدو عليه من بساطة ، قد تنطوي على قدر هائل من الخطر ، ولكنني أريد أن أقول لك : إنه لو تمت المهمة بنجاح ، حاول ألا تلتقي مرة ثانية أبدًا ، لأنه لو حدث هذا ، سأبذل قصارى جهدي للقضاء عليك ، مهما كلفني هذا ، لأنني لا أمقت شخصًا في الدنيا كما أمقتك .

صافحه (أدهم) في هدوء مستفز ، وهو يقول بابتسامة ساخرة :

- حاول أنت ألا تلتقي عندئذ ، فستطل ضحكتي الساخرة حتمًا ، عندما أراك تفشل في مسعاك ، وتبقى في مرارة الفشل .

قال (راكويل) ، بكل مقت الدنيا :

- سترى يا مستر (أدهم) .. سترى .

رفع (أدهم) حاجبيه وخفضهما مرة أخرى ، وهو يقول بنفس الابتسامة الساخرة :

- نعم يا مستر (راكويل) .. سترى .

وكانت هذه هي البداية ..

بداية المأزق ..

أكبر مأزق سيواجهه (أدهم) في حياته ..

على الإطلاق ..

* * *

نفثت الزعيمة الغامضة دخان سيجارتها الحمراء، في بطء واستمتاع، وهي تراجع المعلومات، التي تراصت على شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بها، قبل أن تسترخي في مقعدها، قائلة:

- عظيم .. كل شيء يسير على ما يرام.

قال قائد قواتها في قلق:

- ولكن المعلومات تقول: إنهم يراجعون ملفات الأقمار الصناعية، مما يعني أنهم قد كونوا فكرة معقولة، عن طبيعة السلاح الذي نستخدمه.

هزت كتفيها في لامبالاة، قائلة:

- كانوا سيتوصلون إليه، إن عاجلاً أو آجلاً.

سألها في دهشة:

- ألا يقلقك هذا؟!

ابتسمت ابتسامة غامضة، وهي تقول:

- كل شيء ما زال تحت السيطرة.

سألها، في شيء من التوتر:

- كل شيء؟!

أجابته بمنتهى الحزم:

- نعم .. كل شيء.

مط شفتيه، وهو يراجع المعلومات على شاشة الكمبيوتر مرة أخرى، قبل أن يغمغم:

- ربما.

أدارت إليه عينين مستغرقتين، ونفثت دخان سيجارتها في وجهه، قبل أن تقول:

- قل لي يا رجل: هل يتضمن عقلك أن تفكر؟!

حدّق في وجهها ، قائلاً في حيرة :

- ماذا تعنين أيتها الزعيمة ؟!

استدارت إليه بجسدها الفاتن كله ، وهي تقول ، في صرامة واضحة :

- أعني أنني عندما استأجرت خدماتك ، أخبرتك بمنتهى الوضوح ، أنك ستحصل على هذه المكافأة الضخمة ، مقابل خدماتك وخبرتك العسكرية والقتالية ، ولم أشر لحظة واحدة ، إلى أنني أحتاج إلى ذكائك أو عبقريتك .

تطلّع إليها في تساؤل حائر ، فاكتسب صوتها قسوة وصرامة ، وهي تقول في شراسة :

- بالاختصار ، أريد منك أن تُشغل نفسك قتاليًا ، وتترك كل ما يتعلّق بالتفكير والتدبير لي وحدي .. هل تفهم ؟!

مضت لحظة من الصمت ، تطلّع كل منهما خلالها إلى عيني الآخر ، قبل أن يقول هو متراجعًا :

- كنت أبدي رأيي فحسب .

قالت بنفس الصرامة الشرسة :

- في المرة القادمة ، احتفظ برأيك هذا لنفسك .

قال ، في شيء من التوتر :

- ولكننا في زورق واحد .

صاحت في غضب :

- وأنا قبطان هذا الزورق .

تزايد توتره ، وهو يقول :

- في هذه الحالة ، أظنني أحتل منصب الضابط الأول ، ومن حق من في منصبي أن يبلغ القبطان بكل ما يتراءى له ، وبكل ما يقلق عليه .

قالت بكل الصرامة :

- على أن يتخذ القبطان القرارات وحده في النهاية .

تخاذل صوته ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

قوله الأخير هذا جعلها تتراجع عن غضبتها الشرسة ، وتستعيد ابتسامتها الساحرة ، قائلة :

- عظيم .. هذا يضع النقاط على الحروف في وضوح .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تشير إلى شاشة الكمبيوتر ، متابعة :

- هل لاحظت أنهم قد استعانوا بأكثر رجالهم خبرة وحنكة ، لفحص تلك الحجرة ، التي تمكنا بث منها ، عبر شبكة الاتصالات الداخلية ، في مبنى الكونجرس ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- الفريق الذي استعانوا به ، من أبرع رجال الطب الشرعي والمعامل الجنائية لديهم ، وهو المسئول عن حل معظم الجرائم شديدة التعقيد ، في الولايات المتحدة كلها .

وصمت لحظة ، ثم تابع في توتر ، لم يستطع كبحه :

- إنهم معتادون على فحص مسرح الجريمة ، بمنتهى الدقة والعناية ، وكل شيء يعثرون عليه فيها ، يمكن أن

يقودهم إلى النتيجة ما .. بصمة إصبع .. شعرة رأس ، أو حتى أثر حذاء .

وصمت لحظة ، ثم واصل ، في شيء من العصبية :

- إنهم بارعون بحق .. بارعون إلى أقصى حد ممكن .

أدهشه بشدة أن ارتسمت على شفتيها ابتسامة كبيرة ، وهي تقول في استمتاع عجيب :

- عظيم .. عظيم .

قالتها ، ثم انطلقت من حلقها ضحكة عالية عابثة ، قبل أن تلقي ما تبقّى من سيجارتها الحمراء بعيدًا ، وتتابع في جذل وحشي عجيب :

- سيروق لي كثيرًا ما سيعثرون عليه هناك .. وسيروق لي أكثر ما سيتوصلون إليه .

وعادت تطلق ضحكة عابثة طويلة مطولة ، ثم تلتقط نفسًا عميقًا ، وتقول في شيء من المرح :

- كل شيء يسير على ما يرام بالفعل .

مع آخر كلماتها ، انطلق من الكمبيوتر أزيز خافت ، وظهر في ركن شاشته رسم لمظروف مغلق ، يعلن وصول رسالة عاجلة ، فمالت الزعيمة نحو لوحة الأزرار ، وهي تقول في اهتمام :

- معلومة عاجلة .

وضغطت أحد أزرار اللوحة ، فانفتح رمز المظروف ، وظهرت الرسالة كاملة على الشاشة ..

كانت رسالة قصيرة ، تحوي جملة واحدة فحسب ..

وبسرعة ، التهمت عينا الزعيمة كلمات الرسالة القصيرة ، ثم تألقت عيناها في شدة ، وهي تقول :

- آه .. لقد فعلوها .

سألها القائد الثاني في لهفة :

- هل استعانوا حقًّا بذلك المصري ؟!

أشعلت سيجارة جديدة ، ونفثت دخانها في عمق ، وهي تقول بلهجة غامضة :

- جواب هذا السؤال لم يشغلني لحظة واحدة .. كنت واثقة من أنهم سيطلبون ما طلبته منا .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت في شيء من الحزم :

- السؤال الذي كان يقلقني : هل سيوافق هو على مساعدتهم ؟!

سألها القائد الثاني في اهتمام حائر :

- ولماذا الإصرار على هذا المصري بالتحديد ؟!

نفثت دخان سيجارتها بمنتهى البطء ، قبل أن تجيب ، في استمتاع عجيب :

- لأن وجوده سيجعل اللعبة أكثر إمتاعًا .. أكثر بكثير .

قالتها ، وعادت تطلق تلك الضحكة الطويلة العابثة ..

وفي هذه المرة ، وربما لأول مرة منذ عرفها ، شعر القائد الثاني بالخوف منها يسري في عروقه ..

فعلى الرغم من جمالها وفتنتها، وضحكتها العذبة الطويلة، بدت له، في تلك اللحظة، أشبه بوحش..

وحش السر.

النهاية.

* * *

٧- السر..

تلقى حاجبا مستشارة الأمن القومي الأمريكية، وانقلبت سحنتها، على نحو زاد ملامحها قبحا، وهي تتبع شخصيا، عملية فحص تلك الحجرة، التي تم بث الفصل المزعجة منها..

كان فريق خبراء الأدلة الجنائية يقوم بفحص المكان، في دقة متناهية، بحيث يستحيل أن تفوتهم لمحة واحدة..

كانوا يجمعون كل ذرة يجدونها، ويرفعون البصمات من كل ركن، وكل جدار، ويستخدمون أحدث معداتهم؛ لكشف كل ما يمكن كشفه..

وبعد ثلاث ساعات كاملة من العمل، تقدم قائد الفريق من مستشارة الأمن، وقال وهو يمسح العرق الغزير، الذي غمر وجهه، على الرغم من برودة الجو:

- أمازلت تصرين على البقاء يا سيدتي؟! الرجال يقومون بعملهم على أكمل وجه، ولكن وجودك معهم يثير توترهم، إلى حد ما.

قالت في خشونة:

- دعهم يرتبكون هنا

مط شفتيه ، قائلاً :

- ولكن ما فائدة وجودك هنا ؟!

بدت أمنيه بلهجة مقتوسة ، وهي تسأله :

- هل عثرتم على بصماتها ؟!

أشار الرجل بسبابته ، قائلاً :

- المكان يحوي العديد من البصمات ، و..

قاطعته في صرامة :

- تلك المغامرة لم تكن ترتدي قفازات ، وستجدون بصماتها حتمًا ، في مكان ما هنا ، لو قمتم بعملكم كما ينبغي .

بدا الضيق واضحًا في ملامحه وصوته ، وهو يقول :

- إننا نقوم بعملنا أفضل مما ينبغي يا سيدتي ، ولكن البصمات لا يمكن فحصها في مسرح الجريمة .. لابد أن نحملها إلى معاملنا ، حيث شبكة الكمبيوتر و...

قاطعته بنفس الصرامة :

- ما الذي تحتاجون إليه بالضبط ؟!

تطلع إليها ، في دهشة مستنكرة ، فأجابت بصرامة أكثر :

- ما الذي تحتاجون إليه ، لأحصل على النتائج فورًا ؟!

بدا عليه الغضب ، وهو يقول في حدة :

- ما نحتاج إليه بالفعل ، هو أن تتركينا وشأننا يا سيدتي .. دعينا نعمل كما ينبغي ، واذهبي أنت لتمارسي عملك كما ينبغي .

احتقن وجهها الأسمر ، وهي تهتف :

- كيف تجرؤ أيها الـ ..

قاطعها في صرامة شديدة :

- لست أجرؤ فحسب ، ولكنني أشجع أيضًا .

ثم شد قامته ، مستطردًا :

- وبأسلوب عملي .

قالها ، والتفت إلى فريق الفحص ، هاتفًا بلهجة آمرة صارمة :

- توقفوا .

لم يكد ينطقها ، حتى توقف الرجال دفعة واحدة ، ونهضوا واقفين ، كجنود في حالة استعداد قتالي ، مما ضاعف من احتقان وجهها ، وهي تهتف ، بكل غضب الدنيا :

- هل تدرك ما تفعله ؟!

أجابها الرجل في صرامة :

ـ نعم يا سيدتي .. ندرك جيدًا كنا نرغب في أداء عملنا كما ينبغي ، وأننا لن نسمح لأي مخترق ، أيًا كان منصبه ، أن يفسد عملنا ، أو يدس أنفه فيه ، ولو لحظة واحدة .

هتفت :

ـ أتعلم أن باستطاعتي أن ..

قاطعها بنفس الصرامة ، وهو يواصل حديثه :

ـ ولو أننا عجزنا عن القيام بعملنا لهذا السبب ، فنحن نعلن فشلنا ، ونتقدم باستقالتنا الجماعية .. فورًا .

حدقت في وجهه بضع لحظات ، وكأنها لا تصدق ما تسمعه منه ، وتصارعت في أعماقها رغبتها في الحصول على النتائج ، مع غضبها من تحديهم لها ، إلا أنها لم تلبث أن قالت ، وهي تندفع خارج المكان في حدة :

ـ واصلوا عملكم .

كان الغضب يتفجر ، في كل خلية من خلاياها ، وهي تسير في خطوات عصبية سريعة ، عبر ممرات الكونجرس ، مغمغمة :

ـ أيتها الحقيرة .. أنت السبب في كل هذا .. أقسم أن أسحقك سحقًا ، عندما أظفر بك .

مع آخر حروف كلماتها ، ارتفع رنين هاتفها المحمول بغتة ، فالتقطته في حركة عصبية ، قائلة :

ـ أتعشم أن يحمل هذا الاتصال خبرًا سارًا .

ضغطت زر الاتصال ، وهي تقول في حدة :

ـ ماذا هناك ؟!

أتاها صوت مدير المطارات المركزية ، وهو يقول في توتر :

ـ لقد كنا على حق .

انعقد حاجباها في شدة ، وهي تقول في غضب :

ـ رباه ! هل استخدموا برنامجنا ضدنا ؟!

أجابها مدير المطارات :

ـ نعم يا مستشارة الأمن القومي .. تلك الحقيرة سيطرت بوسيلة ما ، على أحد أقمارنا الصناعية ، التي كانت ضمن برنامج (حرب النجوم)(*) ، الذي لم يتم استكماله ؛ لأسباب اقتصادية وسياسية .. لقد سيطرت بالتحديد على القمر

(*) برنامج حرب النجوم : هو برنامج عسكري فضائي ، تم وضع أسسه ، أثناء فترة حكم الرئيس (ريجان) ، وهو يعتمد على وجود شبكة من الأقمار الصناعية ، تحيط بكوكب الأرض ، وتصد مدافع الليزر القوية ، القادرة على سحق أي هدف ، في أية بقعة من الأرض ، ولكن تم إيقاف البرنامج ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، باعتبار أنه لم يعد من الضروري إطلاق تلك المطاردات عليه ، بعد أن أصبحت (أمريكا) زعيمة العالم الجديد

الوجود ، الذي يحوي مدفع ليزر قادرًا على العمل ، وهي تستخدم أشعة الليزر غير المرئية ؛ لنسف أهدافنا الأرضية ، وإزالتها تمامًا من الوجود .

مضت لحظات من الصمت ، عجزت مستشارة الأمن خلالها ، عن النطق بحرف واحد ، من شدة الذهول والاستنكار ، فتابع مدير المخابرات في توتر بالغ :

ـ علماؤنا يحاولون استعادة السيطرة على القمر الصناعي ، ولكنهم يقولون إن الأمر عسير للغاية ؛ لأن تلك الحقيرة قد أبدلت شفرات الاتصال تمامًا .

قالت مستشارة الأمن ، وهي تبذل جهدًا خرافيًا ؛ للسيطرة على انفعالها ، وتخفي الذهول والغضب عن نُطقها وصوتها :

ـ وكم من الوقت نحتاج لاستعادة السيطرة عليه ؟!

أجابها في مرارة :

ـ ثلاثة أيام ، على أقل تقدير ، باستخدام أحدث الأجهزة والمعدات ، وأفضل خبراء الشفرة والاتصالات .

تضاعف غضبها ، وهي تغمغم :

ـ يا للحقيرة !

كانت تشتعل غضبًا وثورة ، في أعمق أعماقها ، ولكنها قاومت كل هذا في استماتة ؛ لتضيف :

ـ ألا يمكن تعقُّب الوسيلة ، التي تسيطر بها على قمرنا ، وتوجه بها ضرباتها ؟! هناك محطة سيطرة أرضية حتمًا ، في مكان ما هنا .

أجابها مدير المخابرات :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا لكشف هذا .

هتفت في حدة :

ـ لقد سئمت عبارة (قصارى جهدنا) هذه ، فلا يستخدمها دومًا سوى المقصرين .

قال مدير المخابرات في غضب :

ـ اسمعي أيتها المستشارة .. أعلم أنك غاضبة مما يحدث ، وكلنا نعاني حالة الإحباط نفسها ، ولكن هذا لايمنحك الحق في أن تتعاملي مع الآخرين ، بهذا الأسلوب الفظ الوقح ، وفي المرة القادمة ، لو تعاملت معي بهذا الصلف ، أو أثرت مجرد إشارة ، إلى ضعف كفاءتي ، أو كفاءة رجالي ، أو سخرت مما نفعل ، سأرسل ملفك السري كله ، إلى كبريات الصحف ، في

جميع أنحاء العالم . وأنت تعلمين أنه يحوى كل ما يكفى ؛ لأن يضطر الرئيس إلى التخلى عنك ، والتضحية بمستقبلك كله ، حتى لا يخسر فرصته الأخيرة ، فى الترشيح لفترة رئاسية ثانية .

امتقع وجهها بشدة ، وهى تسمعه ، وحاولت أن تقول أى شىء ؛ لإعلان اعتراضها وغضبها ، إلا أنها أدركت صحة ما يقول ، وأنه لن يتردد لحظة واحدة ، فى تدمير مستقبلها كله ، إذا ما تجاوزت حدودها ، فابتلعت كل ما تشعر به فى أعماقها ، وسألته محاولة تجاوز الموقف كله :

ـ هل من أخبار عن ذلك المصرى ؟!

أدرك مدير المخابرات الأمريكية هدفها ، فتجاوز الموقف بدوره ، وهو يقول فى هدوء :

ـ لقد تزود بالوقود للمرة الأولى بالفعل ، من حاملة الطائرات (جونسون) ، والرجال هناك يؤكدون أنه طيار بارع إلى درجة مدهشة ، وأن هبوطه وإقلاعه كانا مثاليين ، حتى إن بعض طياريهم قد شعروا بالغيرة منه .

مطت شفتيها ، قائلة فى مقت :

ـ لست أصدق أن مصريًا يمكن أن يكون بهذه البراعة .

صمت مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ لو أنك تعيشين عالمنا ، لأدركت أن المصريين ليسوا بالسذاجة التى تتصورينها ، وأنهم عباقرة فى عدة مجالات ، ومقاتلون لا يشق لهم غبار ، فى مضمار القتال .

قالت فى غضب :

ـ هل يثيرون إعجابك إلى هذا الحد ؟!

أجابها فى سرعة وحزم :

ـ فى عالمنا ، نحترم الأبطال ، أيًّا كانت جنسيتهم ، ولو لم يكن ذلك الرجل بالخطورة ، فى عالم المخابرات والجاسوسية ، لما أصر الإسرائيليون على ضرورة التخلص منه بأى ثمن كان .

قالت بنفس المقت :

ـ دعه ينجز مهمته أولاً ، وليتخلصوا منه فيما بعد .. إنه شخصيًا سيجرى اتصالاتى مع الإسرائيليين ، و ...

قاطعها بغتة ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

سألته ، بكل توتر الدنيا :

ـ ماذا حدث هناك ؟!

صاح بها ، وقلقه الجارف يكاد ينسف عقلها :

- لن تصدقي ما فعلته تلك الحقيرة هذه المرة أيتها المستشارة .. لن تصدقي أبداً .

صاحت به :

- ماذا حدث بالله عليك ؟!

وأخبرها مدير المخابرات بما حدث ..

واتسعت عيناها عن آخرهما ..

وهوى قلبها بين قدميها ..

لما فعلته الزعيمة الفاسقة هذه المرة ، كان مخيفاً ..

مخيفاً بحق ..

* * *

التقط مدير المخابرات المصرية تلك البرقية العاجلة ، التي قدمها له مساعده الأول ، وقرأ كلماتها في سرعة ، قبل أن يتراجع في مقعده ، ويرفع سبابته إلى ذقنه ، قائلاً :

- إذن فقد تزود (ن - ١) بالوقود للمرة الثانية !

ابتسم المساعد ، وهو يقول :

- من الواضح أن سيادة العميد يبهرهم بمهارته وقدراته المدهشة ياسيدي ، فهم يتحدثون عنه ، كما لو كان أسطورة حية .

غمغم المدير :

- إنه كذلك بالفعل .

نطقها في شيء من الشرود ، فتطلع إليه مساعده بضع لحظات في صمت ، قبل أن يسأله في حذر :

- ما الذي يقلقك ياسيدي ؟!

رفع المدير عينيه إليه في صمت ، طال لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن يقول في قلق واضح :

- المرحلة الثالثة من الرحلة .

سأله المساعد :

- وماذا عنها ؟! سيادة العميد (أدهم) طيار بارع للغاية ، باعتراف خبرائهم قبل خبرائنا ، وعملية التزود بالوقود في أثناء الطيران ، عملية تحتاج إلى المهارة وقوة التحكم في الطائرة ، وسيادته يجيد الأمرين بكفاءة تامة .

هزَّ المدير رأسه ، قائلاً :

- ليس هذا ما يقلقني .

قالها ، ونهض من خلف مكتبه ، واتجه نحو نافذة الحجرة ، ووقف يتطلّع عبرها في صمت ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ثم لم يلبث أن سأل ، دون أن يلتفت إلى مساعده :

- ما أهم سلاح ، تواجه به أي خصم قوي ؟!

أجابه مساعده في سرعة :

- المعلومات .

أومأ المدير برأسه ، قائلاً :

- بالضبط .

وصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلتفت إلى مساعده ، قائلاً :

- لو راجعت ما يحدث ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، لعرفت أن كفة المعلومات هناك غير متوازنة على الإطلاق ، وأن تلك الزعيمة الغامضة ، التي توجه ضرباتها الخاصة هنا وهناك ، لديها رصيد ضخم من المعلومات ، عن كل ما يدور

في دهاليز السياسة وخزائن العسكرية ، في معظم الأماكن والجهات ، شديدة الأهمية والخطورة ، في الولايات المتحدة كلها ، وأن لديها ما يسمح لها بالتسلل إلى أماكن شديدة الحساسية ، والدخول إلى مواقع بالغة الدقة ، في نفس الوقت الذي يفتقر فيه الأمريكيون إلى أية معلومات وافية عنها ، تتيح لهم التصدي لها ، ومواجهتها ، وإيقاف أو عرقلة مخططاتها .

وتوقف ليتنهد في عمق ، ثم تابع في قلق :

- وفي هذه المرحلة الأخيرة ، من رحلة (ن - ١) العجيبة الفريدة ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ستقترب مقاتلته رويداً رويداً من السواحل الأمريكية ، وستصبح في حاجة شديدة للتزود بالوقود ، وإلا سقطت طائرته في المحيط .

تساءل مساعده ، وقد انعقد قلق عارم في أعماقه :

- سيدي .. هل تشير إلى احتمال حدوث معركة ما ، لمنع سيادة العميد ، من بلوغ (واشنطن) ؟!

أشار إليه المدير ، قائلاً في قلق :

- تعرف أنت ، لماذا أصرت تلك الزعيمة الغامضة ، على أن يكون (ن - ١) بالتحديد ، هو همزة الوصل ، بينها وبين

الحكومة الأمريكية ، في مفاوضاتها معها ؟! لماذا رجل مخابرات مصري بالذات ؟!

ودون أن ينتظر جوابًا ، عاد يتطلّع عبر النافذة ، متابعًا بنفس القلق :

- لا يبقى هنا في أعماقي بذرة شك ، في أنها وسيلة مبتكرة ؛ لجذب (ن - ١) إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، والقضاء عليه بوسيلة ما ؟!

غمغم المساعد في اقتضاب ، دفعه إليه التفكير العميق :

- ربما يا سيّدي !

ثم استدرك في سرعة :

- ولكن هناك نقطة أخرى ، لا تقل أهمية وخطورة .

التفت إليه المدير مرة أخرى ، وسأله في اهتمام :

- وما هي ؟!

أجابه المساعد في سرعة :

- سيادة العميد (أدهم) يقود طائرة مقاتلة ، تعتبر الأحدث من نوعها ، ومع مقاتل مثله ، ستصبح أية محاولة لإسقاطها أشبه بالانتحار .

صمت مدير المخابرات طويلاً هذه المرة ، قبل أن يقول :

- هذا يقودنا إلى سؤال آخر .. كيف يمكن أن يسمح الأمريكيون لرجل مخابرات مصري ، بقيادة أحدث مقاتلاتهم ، والهبوط بها في (واشنطن) ، دون أن يتخذوا كل الاحتياطات اللازمة ، في هذا الشأن ؟!

وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يضيف :

- وجواب كل هذه الأسئلة يحتاج إلى السلاح نفسه .

وصمت لحظة أخرى ، قبل أن يكمل في حزم :

- المعلومات .

واحتواهما الصمت مرة ثانية ، وقد انطلقت أفكارهما إلى هناك ..

إلى المحيط ..

محيط الخطر ..

* * *

كل شيء سار على ما يرام ، حتى هذه المرحلة ..

الرحلة كانت طويلة ، ولكن المقاتلة الأمريكية الجديدة قوية بالفعل ، وتنطلق بسرعة مدهشة ..

وعملية التزود بالوقود تمت في إطار الجدول المسجل ، ودون أية متاعب أو مشكلات ، باستثناء نظرات الحقد والغيرة ، في عيون الطيارين الأمريكيين ، وهم يتطلعون إلى المصري ، الذي يقود أحدث طائراتهم ، في مهارة مدهشة ، تفوق أقصى ما يحلمون ببلوغه ..

ومن المؤكد أنهم ، في تلك اللحظات ، قد تذكَّروا تلك الحقيقة المؤلمة - بالنسبة لهم - والتي تؤكِّد أن كفاءة الطيار المقاتل المصري ، تفوق بعدة مرات كفاءة أفضل طيار مقاتل أمريكي ، أو حتى إسرائيلي ؛ لأن الطيار المصري يعتمد دومًا على مهارته الشخصية ، أكثر مما يعتمد على تكنولوجيا مقاتلته ، كما يفعل الأمريكيون والإسرائيليون(*) ..

ولقد اقتربت المرحلة الثالثة ، والمفترض أن تظهر طائرة الوقود ، بين لحظة وأخرى ..

كانت المؤشرات تشير إلى أن الوقود يكفي لربع ساعة أخرى من الطيران ، قبل أن ينفد تمامًا ، قبل مئات الكيلومترات ، من الساحل الأمريكي ..

وفي الشمال ، أدار (أدهم) عينيه فيما حوله ، وهو يغمغم :

- هيا يا بطة الوقود .. لا بد أن تظهري الآن .

(*) حقيقة ، يمكن التأكد منها ببساطة ، عبر شبكة الإنترنت .

كان يقود المقاتلة الأمريكية الحديثة بمهارة مذهلة ، وبنشوة لم يشعر بمثلها من قبل ؛ ربما لأن المارق ، الذي وقفت خلفه زعيمة النظام العالمي الجديد ، قد خسر أغلبها ، وسحق غطرستها ، ودفعها مرغمًا إلى الاستعانة به ..

برجل مخابرات (مصري) ..

ومع الفكرة ، تسللت إلى شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- لقد أقروا بالحقيقة ، على الرغم منهم .. بالتأكيد !

ثم تلاشت ابتسامته ، وهو يتابع :

- ولو أن الأمر بيدي ، لتركت تلك الزعيمة الغاضبة تسحقهم سحقًا ، جزاء لما فعلوه بنا .

قالها ، وذهنه يستعيد عبارة رئيس الجمهورية ، في لقائه معه ، قبل أن يقابل مندوب المخابرات الأمريكية ..

« إننا لا نفعل هذا من أجل الولايات المتحدة الأمريكية أيها العميد (أدهم) .. إننا نفعله من أجلنا نحن ، فلو نجحت تلك الغاضبة ، في السيطرة على الإدارة الأمريكية ، وهزيمة أكبر دولة في العالم ، لن تتردد لحظة واحدة ، في فرض سيطرتها على العالم كله ، وهي لن تستثني (مصر) بالتأكيد .. »

وكانت نظرية الرئيس صحيحة تمامًا ..

فالعمالقة .. كل العمالقة ، لن تسمح للخطر أن يستشري ، لمجرد أنه بعيد عن حدودها ..

هذا لأن الطبيعة الاستعمارية لا تشبع أبدًا ..

أعطها قيراطًا ، وستطلب فدانًا ..

وفدانًا ..

وفدادين ..

وأرض الدنيا كلها ..

الوسيلة الوحيدة إذن لدرء خطرها ، هو أن تقتلها في مهدها ، وتسحقها مع مولدها .

أن تطيح بها ، قبل أن تطيح هي بك ..

وبما حولك ..

ومن حولك ..

وبالدنيا كلها فيما بعد ..

دارت تلك الأفكار في رأسه ، ومقاتلته تواصل انطلاقها فوق المحيط الأطلنطي ، وعيناه تبحثان فيما حوله ، و ...

وفجأة ، ظهرت طائرة الوقود ..

ظهرت نقطة القرب ، وهي تتجه نحوه مباشرة ، في نفس اللحظة التي انبعث فيها صوت غليظ ، عبر جهاز الاتصال ، يقول :

- من بطة الوقود إلى النورس .. دقيقتان قبل مرحلة التوازي .. ثم بتخفيض السرعة ، استعدادًا لعملية التزود بالوقود .

ضغط (أدهم) زر الاتصال ، قائلاً :

- من النورس المصري إلى بطة الوقود الأمريكية .. تسلمنا رسالتكم ، ويتم الآن تخفيض السرعة ، إلى مستوى يناسب عملية التوازي .

أتاه ذلك الصوت الغليظ ، يقول :

- عبارتك غير صحيحة أيها النورس .. المفترض ألا يتم ذكر الجنسيات .

أجابه (أدهم) في سخرية :

- اعتبر هذا تجاوزًا مشاغبًا أيها الأمريكي .

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول صاحب الصوت الغليظ ، وطائرة الوقود تقترب أكثر :

- فليكن أيها المصري .

خفض (أدهم) سرعة مقاتلته رويدًا رويدًا ، حتى تتناسب مع سرعة طائرة الوقود ، التي اقتربت ..

واقتربت ..

واقتربت ..

وفي مناورة مدروسة ، قامت طائرة الوقود بدورة مكتملة ، لتعمل على تغيير اتجاهها ، وتنطلق نحو الغرب ، وهي تقترب من مقاتلة (أدهم) ، وترتفع فوقها ، وصاحب الصوت الغليظ يقول ، عبر جهاز الاتصال :

ـ السرعة متناسبة ، والارتفاع مثالي .. استعد لعملية التزود بالوقود .

جذب (أدهم) ذراعًا معدنية صغيرة ، ليفتح خزان وقود مقاتلته ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه طائرة الوقود تمد أنبوبًا خاصًا ، من خزانها الضخم ، ليتصل بفتحة خزان وقود المقاتلة ، و...

وفجأة ، ظهرت تلك المقاتلة الأخرى ..

ظهرت فجأة من الشمال ، وهي تنطلق نحو مقاتلة (أدهم) مباشرة ، في نفس اللحظة ، التي هتف فيها قائد طائرة الوقود ، في دهشة مذعورة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

ومع آخر حروف هتافه ، أطلقت المقاتلة الجديدة أحد صواريخها ، نحو مقاتلة (أدهم) مباشرة ، وهي تواصل الانطلاق نحوها ..

وعلى الرغم من المفاجأة ، استوعب ذهن (أدهم) الموقف كله ، في جزء من الثانية ..

وفي الجزء التالي من الثانية ، كان قد وضع خبرته كلها موضع التنفيذ ، وجذب عجلة القيادة ، وهو يميل بالجناحين ، ويزيد سرعته ، في نفس اللحظة ..

ومع مناورته المدهشة ، وسرعة استجابته الفريدة ، تجاوزت مقاتلته ذلك الصاروخ ، على نحو مذهل ، قبل أن تنطلق مبتعدًا ، في مهارة مبهرة ، وذلك الصوت الغليظ ينبعث من جهاز اتصالها ، هاتفًا في ارتياع :

ـ ما الذي يحدث هنا ؟! ليس من المفترض أن يحدث هذا .. ليس من المفترض أبدًا

لم يحاول (أدهم) التعليق على ذلك الهتاف المذعور ، وهو ينطلق بمقاتلته ، وتلك المقاتلة المجهولة تطارده في إصرار .

وعلى الرغم من دقة الموقف ، غمغم (أدهم) في سخرية :

ـ الأمر ليس بالبساطة التي تتصورها أيها الوغد .

انخفض بالمقاتلة فجأة، مع آخر حروف همهمته، وتركه المقاتلة الأخرى تتبعه لحظة، ثم انحرف جانبًا بحركة حادة، ومال بزاوية بالغة الخطورة، تحتاج إلى مهارة فائقة ..

ولقد حاول قائد الطائرة المجهولة مجاراته، فانحرف بنفس الحركة الحادة، ومال بزاوية مقاربة ..

ولكنها ليست مساوية ..

وفي نفس اللحظة، كان (أدهم) يرتفع بمقاتلته مرة أخرى، ويدور بها في مهارة، ثم ينخفض مرة أخرى، وهو يغمغم:

- من سوء حظك أن طائرة المقدمة تمتلك دومًا حق تحديد المسار أيها الوغد.

كانت مناورته المدهشة قد عكست الموقف تمامًا، بحيث أصبح هو في المؤخرة، وأصبحت تلك المقاتلة المجهولة في مرمى نيرانه تمامًا ..

ولقد حاول قائد المقاتلة المجهولة الإفلات من الموقف ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن الأمر كان يعتمد، في تلك اللحظات، اعتمادًا رئيسيًا على سرعة المناورة والاستجابة ..

وفي هذا المضمار، كان من العسير أن يتفوق مخلوق ما على رجل المستحيل .. أي مخلوق ..

وفي حسم، غمغم (أدهم)، وهو يضغط زر إطلاق الصواريخ في مقاتلته:

- يؤسفني حقًا ما سأفعله بك أيها الوغد، ولكن لا اختيار في مثل هذه المواقف .. إما أنا، أو أنت.

لم يكد يتم عبارته، حتى انطلق أزيز حاد داخل مقاتلته، قبل أن يضاء لوح أحمر صغير، في تابلوه القيادة ..

لوح يحمل عبارة مخيفة للغاية، في موقف كهذا.

عبارة تقول: إن المقاتلة قد تم نزع كل تسليحها القتالي، كإجراء أمني خاص ..

تم نزع كل تسليحها تمامًا ..

وكان هذا يعني أن (أدهم) قد أصبح في مأزق، فوق المحيط الأطلنطي ..

مأزق حقيقي ..

ورهيب.

* * *

٨ - بلا أمل ..

لم تشعر مستشارة الأمن القومي الأمريكية، في حياتها كلها بالغضب والسخط، كما شعرت بهما في تلك اللحظة، وهي تتطلع إلى مركز التحكُّم في الأقمار الصناعية، والذي تم سحقه سحقًا، بوساطة مدفع الليزر القوي، الذي يحمله ذلك القمر الصناعي، الذي تسيطر عليه الزعيمة الغامضة..

وفي مرارة لا مثيل لها، قال مدير المخابرات، وهو يشير إلى الحطام:

- لقد فعلتها .. أدركت أننا سنسعى لاستعادة السيطرة على القمر، فسحقت محاولاتنا كلها بضربة واحدة.

غمغمت مستشارة الأمن في مقت:

- ضربة وقائية.

هز رأسه نفيًا، وقال:

- بل ضربة تأديبية، لو شئنا الدقة .. إنها تلقننا درسًا قاسيًا، وتبلغنا رسالة صارمة، تقول: إنها ستتخذ موقفًا عنيفًا في القسوة، لو حاولنا التصدي لها.

صاحت مستشارة الأمن في غضب:

- وهل تتوقَّع منا أن نقف ساكنين مستسلمين ؟!

أجابها في مرارة:

- بل تسعى لإجبارنا على هذا.

صاحت بكل الحدة:

- يا للحقارة ! إنها تتجاوز كل القواعد .. على نحو يبالغ الصفاقة والوقاحة.

بدا مدير المخابرات عصبيًا، وهو يقول:

- إننا لم نتردد في فعل المثل، عندما كنا نحن الأكثر قوة.

انعقد حاجباها في شدة، وهي تقول:

- الأمر يختلف.

أجابها في اقتضاب حازم:

- كلاً.

ازداد انعقاد حاجبيها، وقالت في عصبية:

- وما الذي سنفعله الآن .. كيف يمكننا أن نستعيد سيطرتنا على القمر الصناعي ؟!

هزّ رأسه نفياً ، وهو يقول بمنتهى المرارة :

ـ لم تعد هناك وسيلة مباشرة للنسف .

صاحت به :

ـ أوجد وسيلة .. هذا عملك .

أشار بيده ، قائلاً :

ـ ليس أمامنا سوى البحث عن وحدة التحكّم الأرضية ، والقضاء عليها .

سألته بكل العصبية :

ـ وكم يمكن أن يستغرق هذا ؟!

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ لا أحد يمكنه الجزم .

كانت تصرخ في وجهه غاضبة ، إلا أنها تذكّرت تهديده السابق ، فانعقد حاجباها ، على نحو جعل ملامحها شديدة القبح ، وهي تقول :

ـ ابذل قصارى جهدك إذن ..

لم تكد تتم عبارتها ، حتى ارتفع رنين هاتفها المحمول ، فالتقطته بعصبية ، قائلة :

ـ من هناك ؟!

أتاها صوت رئيس فريق الأدلة الجنائية ، وهو يقول :

ـ سيّدتي .. لقد توصلنا إلى نتائج إيجابية .

سألته في لهفة عصبية :

ـ هل عرفتم من تلك الحقيرة ؟!

أجابها في سرعة :

ـ بالتأكيد يا سيّدتي .

شعرت برجفة باردة تسري في جسدها ، وهي تهتف به :

ـ من هي ؟!

سألها مدير المخابرات ، في تلك اللحظة :

ـ هل توصلوا إليها ؟!

فأشارت بيدها إشارة صارمة قاسية ، وهي تكرّر :

ـ من تلك الحقيرة ؟!

أجابها رئيس الفريق في سرعة :

ـ (لورا كلارمان) .. ملفها يقول : إن ..

قاطعته في غضب مستنكر :

- [لورا كيلرمان] ؟!! أي قول أحمق هذا يا رجل ؟! لست أدرى من تلك الحقيرة بالضبط، ولكنها ليست [لورا كيلرمان] حتمًا.

بادلها غضبًا بغضب، وهو يقول:

- ولمَ لا ؟!! البصمات التي تركتها خلفها، مسجلة دوليًا باسم [لورا كيلرمان]، وشعرة الرأس، التي التقطناها من المقعد، الذي كانت تجلس عليه، يتوافق حمضها النووي، وتتوافق بصمتها الجينية، بل تنطبق انطباقًا تامًا، مع المسجل في ملف [لورا كيلرمان].

امتزج غضبها بحيرتها، مما ضاعف من عصبيتها، وهي تقول:

- ولكن هذا مستحيل ! لقد أعلنت أنها [لورا كيلرمان]، على شاشة العرض، في قاعة اجتماعات الكونجرس.

قال الرجل، في عصبية مماثلة:

- وهل يثبت هذا ما توصلنا إليه أو ينفيه ؟!

تمتمت مستشارة الأمن، وقد بلغت حيرتها مبلغها:

- ولكنها كانت ترتدي قناعًا.

قال في شعور عصبي:

- ربما كانت تحاول إخفاء ملامحها.

قالت في حدة:

- القناع كان يحمل ملامح [لورا كيلرمان]، كما تبدو في ملفها.

مرت لحظة من الصمت، قبل أن يقول الرجل في صرامة:

- سيدتي.. لست أستوعب جيدًا تلك التعقيدات، التي تتحدثين عنها، ولكنني واثق من الأدلة، التي توصلنا إليها، فالأدلة المادية لا تكذب أبدًا، ولقد ثبت أن غريمتنا هي [لورا كيلرمان]، قبل أن نعلم أنها قد أعلنت هويتها، وهذا يحسم الأمر تمامًا، ولو أنكم ترفضون الاعتراف بالنتائج التي توصلنا إليها، فيمكنكم الاستعانة بفريق آخر.

وحمل صوته مزيجًا من الغضب والصرامة، وهو يضيف:

- لو وجدتم فريقًا أفضل.

أنفها ، وأنهى المحادثة على نحو حاد ، فتضاعف من غضب مستشارة الأمن القومي وحنقها وحيرتها ، فأعادت الهاتف إلى جيبها ، وهي تقول في مقت :

- هناك من يعبث بنا .

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول :

- لقد استوعبت هذا ، من ردودك على محدثك .. لقد أبلغتهم الآنسة أنها (نورا كيزمان) .

هتفت في حنق :

- هل يمكنك أن تصدق هذا ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيب في حزم :

- كلا .

ثم التقط هاتفه المحمول ، مستطرداً :

- وهذا يحتاج إلى إجراء تحريات واسعة ، حول الـ ..

قاطعه رنين هاتفه الملاصق ، فضغط زر استلام الاتصال في سرعة ، وهو يقول في احترام :

- أوامرك يا سيادة الرئيس .

راقبته مستشارة الأمن يستمع إلى الرئيس الأمريكي ، في انتباه بالغ ، دون أن ينطق بحرف واحد ، حتى أنهى المحادثة ، قائلاً في توتر ملحوظ :

- بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. سنحضر خلال اثنتي عشرة دقيقة فحسب .

سألته في لهفة ، وهو يعيد الهاتف إلى جيبه :

- ماذا حدث ؟!

أطلق من صدره زفرة ملتهبة ، قبل أن يجيب في توتر :

- الرئيس يريدنا في مكتبه فوراً ؛ فلقد انتقلت تلك المغامرة إلى المرحلة الجديدة ، وبدأت في فرض إرادتها التامة .

وهنا تضاعف غضب وسخط مستشارة الأمن القومي الأمريكية ..

تضاعف ألف مرة ..

* * *

« هل تعتقدين أنهم سيرفضون هذه المرة ، أيتها الزعيمة ... »

ألقى قائد قواتها السؤال ، في اهتمام مشوب بالقلق ، ولكن الزعيمة الغامضة نفثت دخان سيجارتها الحمراء في عمق ، وقالت في ثقة بالغة ، وسخرية واضحة :

- ليس أمامهم خيار آخر .

تألقت عيناه ، وهو يقول :

- مائة مليار دولار ؟! يا له من مبلغ هائل !! إنه كفيل بأن يجعل منا أثرى أثرياء العالم بلا منازع .

ابتسمت في سخرية ، قائلة :

- إنها مجرد بداية .

هتف بكل دهشة الدنيا :

- مجرد بداية ؟!

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قائلة :

- بالتأكيد يا رجل .. هذا المبلغ ، على الرغم من ضخامته ، يكفي بالكاد لبناء ذلك الجيش الصغير ، الذي سيمنحنا القوة الحقيقية ؛ فلحظتي تبلغ ذروة من الطموح ، لم تخطر ببال أعظم عظماء التاريخ .

قال في حيرة :

- مائة مليار دولار مبلغ رهيب ، يكفي لشراء دولة كاملة .

أشارت بسبابتها ، قائلة في حزم :

- ولكنه لا يكفي لبناء دولة قوية .

هتف بكل دهشة الدنيا :

- وهل تسعين لبناء دولة أيتها الزعيمة ؟!

أطلقت ضحكة عالية طويلة أربكته ، قبل أن تقول :

- عقلك يعجز عن استيعاب الفكرة .. أليس كذلك ؟!

تمتم في عصبية :

- أعترف بهذا .

أطلقت ضحكة أخرى مستفزة ، ونفثت دخان سيجارتها بمنتهى العمق ، ثم أدارت عينيها إليه ، قائلة :

- افعل ما أنصحك به إذن .

تطلع إليها في تساؤل متوتر ، فمالت نحوه ، وبدت ساخرة عابثة ، وهي تستطرد في بطء :

- توقف عن التفكير .

قالتها ، وعادت تطلق ضحكتها العابثة الساخرة الطويلة ، على نحو استفز كل ذرة من كيانه ، حتى تمنى لو يسحب مسدسه ، ويخرسها إلى الأبد ، برصاصة في منتصف جبهتها ، ولكن رقم المائة مليار دولار تردد في ذهنه بقوة ، وأقنعه بالاحتمال والتماسك ، وهو يقول :

- فكرة الماسات النقية عبقرية بحق(*) .

هزت كتفيها في لامبالاة ، قائلة :

- أراهن أنهم قد استنتجوها مسبقًا .. فهذه هي الوسيلة الوحيدة لنقل مبلغ كهذا ، دون أن تحتاج إلى سفينة ركاب ضخمة .

سألها في اهتمام :

- ولكن هل سيجدون كل هذه الكمية من الماس ؟!

قالت في هدوء :

- لن يبذلوا الكثير من الجهد .

(*) الماس : حجر كريم ، تركيبه كربون نقي متبلور ، وبلورته تتبع مجموعة المكعب ، وهي شفافة ، أو نصف شفافة ، وقد تحوي ألوانًا أصفر ، أو أزرق ، أو أخضر . وأهم موطن لاستخراجه (الهند) و(جنوب إفريقيا) . وهو أكثر المواد صلابة ، إذ إنه يقدر على خدش كل المواد الأخرى .

ثم مالت نحوه مرة أخرى ، مستطردة في جذل :

- لقد أخبرتهم أين يجدونها بالضبط

هتف في انبهار :

- حقًّا ؟!

ثم سأل في لهفة :

- وهل يوجد مكان واحد ، في العالم كله ، يمكن أن يحوي هذا المقدار من الماس النقي ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وأشارت بيدها ، قائلة :

- من الواضح أنك تجهل الكثير عن عالم الماس يا هذا .. طوال الوقت ، يتم استخراج الماس ، من مختلف المناجم ، في (أوروبا) و(إفريقيا) ، و(أمريكا الجنوبية) و(آسيا) ، وكل ما يتم استخراجه ، ينقل إلى حيث يتم صقله وتصنيفه ، إلى أنواع شديدة النقاوة ، وأخرى أقل نقاوة ، وهكذا ، حتى نصل إلى الأنواع ضعيفة النقاوة ، والتي تستخدم في الصناعة ، وفي قطع الصلب وحفرها .. ولو تم طرح كل ما يستخرج من ماس ، لانخفض سعره ، وضاعت قيمته في الأسواق ، لذا فهناك مراكز معتمدة ، في (أوروبا) والولايات المتحدة الأمريكية ، يتم فيها تخزين الماس ، وفقًا لدرجات نقائه

المختلفة ، بحيث لا يطرح منه فى الأسواق ، سوى كميات محدودة ، تضمن الحفاظ على سعره ، وبقاءه على القمة ، بين مختلف الأحجار الكريمة(*).

وتوقفت لحظة ؛ لتنفث دخان سيجارتها فى استمتاع ، قبل أن تكمل فى استرخاء :

- وأحد أكبر مراكز التجميع والحفظ هذه ، يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ووفقًا لما جمعته من معلومات ، فهو يحوى ما قيمته مائة وعشرة مليارات من الدولارات ، فى شكل ماس بالغ النقاوة ، أو جيد النقاوة إلى حد كبير ، وهذا يعنى أننى لا أتميّز بالطمع الشديد ، فقد تركت لهم ما يساوى عشرة مليار دولار من الماس .. أليس كذلك ؟!

تعلقت الجزء الأخير من عبارتها ، فى سخرية واضحة ، فقلب قائد قواتها شفتيه ، وغمغم :

- بلى أيتها الزعيمة .

(*) حقيقة .

ثم عاد يتساءل فى اهتمام :

- ولكن أن يؤدى طرح كل هذه الكمية من الماس إلى انخفاض سعره ؟!

قالت فى سرعة :

- بل إلى انهياره تمامًا .

بدت عليه دهشة عارمة ، وهو يقول :

- كيف سنربح منه إذن ؟!

أشارت بسبّابتها ، قائلة :

- سنربح منه أكثر مما تتصوّر .

هتف بكل الدهشة :

- وكيف ؟!

صمتت طويلاً هذه المرة ، قبل أن تلقى سيجارتها بعيدًا ، وتقول بمنتهى الصرامة :

- لا ترهق عقلك بالتفكير .. اترك هذه الأمور لى .

شعر بغضب شديد في أعماقه، ولكنه غمغم:

- طبعاً.

ثم أضاف في سرعة، وكأنه يحاول تجاوز الموقف، الذي يثير غضبه وتوتره:

- هل تتوقعين أن يصل المصري إلى (واشنطن)، على الرغم مما فعلناه ؟!

صمتت طويلاً مرة أخرى، قبل أن تقول في حزم:

- سيحتاج إلى الكثير من الحظ ليفعل، فكل مهاراته وخبراته لن تصلح هناك..

وتوقفت لحظة، ثم استطردت في شراسة:

- في قلب المحيط.

ومرة أخرى، شعر الرجل بالخوف منها..

الخوف بلا حدود..

* * *

كان الموقف خطيراً للغاية بالفعل..

صحيح أن (أدهم) يقود مقاتلة أكثر حداثة، وأكثر قوة..

ولكن دون سلاح واحد..

الوسيلة الوحيدة، التي تبقت أمامه، هي أن يواصل مطاردة تلك المقاتلة المجهولة؛ حتى يمنعها من اتخاذ موضع، يتيح لها إطلاق صاروخها الثاني نحوه..

وحتى هذا لم يكن متاحاً..

فوقود مقاتلته يتناقص بمنتهى السرعة..

ويتناقص..

ويتناقص..

ولن تمضي دقائق قليلة، حتى ينفد الوقود تماماً..

دقائق قليلة جداً..

وهذا يعني أنه لن يربح معركته هذه المرة.

لن يربحها أبدًا ..

لن يمكنه أن يربحها ..

وعلى الرغم من ثقته في هذا ، واصل المطاردة بكل القوة ..

وكل الإصرار ..

- « ما تفعله لا طائل وراءه أيها المصري .. »

التقط جهاز الاتصال في مقاتلته العبارة ، بلهجة ساخرة ، وصوت حاد ، ولكنة غير أمريكية ، فانعقد حاجباه في شدة ، وسمع صاحب الصوت الغليظ يهتف :

- رباه ! إنه شفرة الاتصال الخاصة بنا .

لم يحاول (أدهم) التعليق على العبارة ، وقائد المقاتلة المجهولة يواصل ، عبر جهاز الاتصال في مقاتلته :

- أعلم جيدًا أنك لا تمتلك أية أسلحة ، وأن وقودك على وشك النفاد .. أولئك الحمقى الأمريكيون خشوا أن تستخدم مقاتلتهم ، في ضرب أهداف عسكرية لديهم ، فنزعوا تسليح مقاتلتك تمامًا ، قبل أن يسمحوا لك بقيادتها .

كان (أدهم) يشعر بالغضب لهذا الموقف ، وعلى الرغم من هذا ، فقد قال في سخرية :

- وهل تعتقد أن هذا يضاعف من فرصتك في إسقاطي ؟!

أجابه قائد المقاتلة المجهولة على الفور :

- ومن سيحاول حتى أن يفعل ؟!

رأى (أدهم) المقاتلة المجهولة تنحرف ، لتواجه طائرة الوقود مباشرة ، وقائدها يواصل :

- هناك هدف أيسر .

ومع آخر حروف كلماته ، انطلق صاروخه الثاني والأخير ، نحو طائرة الوقود مباشرة ، ونقل جهاز الاتصال ، في مقاتلة (أدهم) ، صوت قائدها الغليظ ، وهو يصرخ :

- لا .. ليس ..

وقبل أن تكتمل صرخته ، دوى الانفجار ..

انفجار رهيب ، أشاع السماء كلها ، بكتلة لهب هائلة ،

مع اشتعال كل الوقود ، الذى حوته خزانات الطائرة الكبيرة ، وانبعثت معه موجة تضاغطية عارمة ، أخلت بتوازن مقاتلة (أدهم) ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها المقاتلة الأخرى مبتعدة ، بأقصى سرعتها ..

وبكل ما يمتلك من قوة ، وخبرة ، ومهارة ، راح (أدهم) يقاتل ؛ لاستعادة السيطرة على المقاتلة ، وهو يدرك جيدًا أن انفجار طائرة الوقود ، قد وضعه فى مأزق رهيب ..

فحتى لو استعاد السيطرة على المقاتلة ، فإن الوقود سينفد خلال لحظات قليلة ..

وعندئذ ستهوى مقاتلته حتمًا ..

فى قلب المحيط .

* * *

انتهى الجزء الأول بحمد الله

ويليه الجزء الثانى بإذن الله

(الغامضة)